F A L A H A L J A W A H I R I

SHORT STORY

فلاح الجواهري

الضباب والغابة

الضباب والغابة / قصص
فلاح الجواهري / مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى ، 2011
© حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 - الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
® عمّان 95297109 7 00962
لوحة الغلاف: **فلاح الجواهري / العراق**
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in any retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-002-9

SHORT STORY

فلاح الجواهري

الضباب والغابة

الضباب والغابة

هذه السلوى العجيبة :

فرشاة ، علبة الوان صغيرة ، أوراق بأحجام وسمك وسطوح مختلفة ، بين أحضانها تندس محتمية صفائح لوحات قديمة ، قلم صغير كاد أن يستهلك ، إسفنجة تشربت بألوان وأزمنة وذرات ورق ذائب وبصمات أصابع . .

لوح خشبي رقيق تأطر بخطوط مشرشرة وبقع وألوان بمستويات مختلفة يمكنك معرفة أعمارها كما في حلقات مقطع جذع دوح معمّر .

تحملها تحت ذراعك برفق وحنو

تحمل هنا مشاعرك وانطباعاتك ورؤاك ، أحلامك وشوقك والحنين الشاف الممض . .

تحمل بها التجربة ولحظة الانبهار في اكتشاف موقع ومعلم . .

تحمل حزمة ضوء معفّر ، يتسلل كاللص بين أغصان غابة كثيفة .

هنا اصطياد لحظة سكون من ظلال غيمة سابحة فوق حقل أخضر .

هنا في هذا الخـزين من الوريقـات والخطوط واللون المنسـاب المرتَشف تكمن معالم كآباتك وإحباطاتك .
تعبر من خلال مساحاتك الورقية الملونة ليل النجم الساهر ، واحتراق «فحمة الديجور» ، والضوء المنتشر الذي لا حدود له ، والظلال الزاحفة ، وأبخرة الوديان . .
تحمل تحت ذراعك زرقة البحر الملتمع ، الكابي ، المعتم ، الشاف بخضاب البنفسج ، متورد الخلجان بالحصى .
تحمل البحر أقحواني الأفق . .
لحظة سارعت لتستوحي منه على وريقاتك ، لقطة من مزاجه البحري . .
عبرتَ فيها بألوانك على عجل وانفعال منبهر منتش . .
وجدت نفسك وفرشاتك وألوانك قد أبدلت مسارك ومسار كل أدواتك ، لتماشي مزاجه المتبدل في غنج ، ثانية بثانية . . .
هنا تحت ذراعك ، وأنت تسير على غيمة من ذهول حالم ، شاشات مترامية الأبعاد تظهر عليها تفاصيل ذكرياتك ، براقة متفجرة الألوان زاهية حينا ، ضبابية غامضة عسيرة الوضوح حينا آخر .
عـدّتك تلك ، قـرّبت الأبعـاد التي تلاشت . . الهـيـئـات والفضائات المترامية . . الجدران المصمتة والنخرة المتهاوية . . الواحة والصحراء . . النهر المتدفق والجدول الرائق . .
ضفاف الطين والرمل . . وأرضاً مشت فيها أخاديد الجفاف المعروقة . . .

هنا سعف النخل المتناثر الهفهاف كشعور السعالي في ليلة عاصفة .

هنا حزنها الأزلي المستوحش في لفح هاجرة صموت . .

هنا تحت ذراعك جبال كردستان الملونة تتدرج بوضوح عبر الزرقة البنفسجية من أوشحة الغروب ، تخال السلاسل المتلاشية في الأفق البعيد تمتد إلى أبدّية غامضة . .

هنا وتحت ذراعك الوطن الذي تستحضره متى ما أمضّك الشوق وأنهكتك الغربة . .

لقد انرت بما تحمل عتمة الشمال الاسكندنافي الطويلة الحزينة . .

أنت أيها المقرور بالبرد والغربة! ها قد ألهبت بتوهج ألوانك اصقاع العدم الجليدية .

كم كانت تلك الأدوات المتواضعة بديلا عن عقاقير الاكتئاب وأسرّة الردهات الصامتة الأكثر اكتئابا ،

كانت فرشاتك حبل نجاتك الذي تسلقته لتخرج من عتمة أقبية الإحباط إلى فسحة الأمل النيرة .

. . وفيما أنت في فيافيك ، حاملا متاع همومك ، تجد فسحة صغيرة من تعب التجوال والضياع . . تسارع فتلقي بعصا ترحالك في استراحة بين المتاهات .

تجد ركنا دافئا تضع فيه حاملة خشبية . . علب ألوانك وأنابيبها . . لفائف من أقمشة الكتان . . صفحات وسيعة من الورق . . رزماً من كتب ، وعددا من أشرطة موسيقية . .

فجأة تكتشف أنك ابتنيت وطنا صغيرا تستعيض به عن الوطن المتنائي عنك يوما بعد آخر . .
ذلك السراب المخادع الذي كلما اقتربت من صفحة مياهه بعطشك الممض ، نأى عنك إلى أفق أبعد .
. . يا لك من مزمن ضياع . .
على مشارف عقدك الثامن ، وما زلت عند مفترق الطرقات .

***

هل انت الذي تتبع الضباب أم أنه هو الذي يتبعك ، ها هي أحزمة منه تقترب منك متوجسة ، شاحبة ، حذرة ، تنزلق فوقها أوشحة أخرى باتجاهات مغايرة . .
حواشي الاوشحة المتهدلة تُسحب فوق سطح التربة الندية التي تبان من خلال الستائر الشافة المشرشرة بقعا وأخاديد وكتلا طينية .
تتوارى هذه المعالم لتظهر بعد لحظة في مكان آخر . .
التربة الندية تزحف .
على مبعدة من مكانك ترتفع أبخرة متموجة ، مذكّرة بغيمات دخان متصاعد عن مواقد التنانير المشجورة بالسعف والأعواد اليابسة عند الفجر في بيوت طينية منثورة بين حقول الجنوب .
. . أشباح عجيبة ملوّنة تطل متنقلة هنا وهناك ، من خلال كوى نصف شفافة بين وشاحات الأبخرة البعيدة . .
تتبدل الألوان وكثافاتها زاحفة ، مبدلة هيئات رسومها دون انقطاع .

إنها أشباح الغابة البعيدة ، «حين تتحرك غابة (دوناي-نورماندي) في مواجهتك» .
تحث الخطى لتلحق الأحزمة الشفافة وكوى الألوان المتحركة التي تلاعبك فتعاود الظهور عن يمينك . . عن شمالك .
تهرب منك .
تتلاشى الألوان والهيئات الشبحية . .
تلتف في متاهات زجاج مضبب متماوج . .
يندى خدك .
تواصل سيرك دون معلم مرئي . . تطفو . . تستقر على سطح لين . . تنحدر فوق أحجار بليلة زلقة . .
أنت الآن تخوّض في جدول بارد يمتزج خريره بحفيف أشجار تقترب . .
للضباب همس مبهم . .
تغوص في الوحل مصرًا على متابعة تخبطك كطفل عنود . .
وخز يدمي ذراعك .
تتخطى سياج أسلاك شائكة فتنهب مساميره نتفا من ثيابك . .
تُدمى ساقاك
تسير حثيثا في مجاهلك . .
أنت محوط الآن بأحزمة ضباب أكثف وأشباح تتحرك . . تظهر وتختفي . . انها جذوع السنديان الضخم العتيق . .
تواصل . .

خيمات وسيعة من أغصان الصنوبر تهفهف فوق رأسك . .
تضرب إحداها قينثال عليك مطر إبري وقطيرات تنثر وجهك بالماء والعطر الصنوبري . .
تسكر بنشوة عابرة .
تزداد كثافة الألوان وروائح اللحاء والأغصان المنخورة ، والجذوع وحصيرة الإبر الصنوبرية المتخمرة ، والعفص والأعشاب الندية . .
. . لتربة الغابة المنتفخة بالأشنات عطر يتمايز عن كل ذاك المزيج الآخر من عطور الأشجار وبقاياها .
. . يتنامى فضولك من ذلك المشهد ، يلفّك غموض يمتزج بخوف الغريزة من عتمات مجاهل الطبيعة البدائية . .
ما الذي يختبيء وراء هذه الظلال المزدحمة وأمواج أوشحة الضباب المبحر في اتجاهات ومستويات متباينة ؟
تتهادى أمامك الأوشحة بإغراء وغنج . . تنسرب بين اشباح الجذوع . . تغريك باللحاق . . أشباح غواني (جيزيل) المسحورات بعشقهن القاتل يسحبنك إلى المجهول فتتبع ولِهاً مأخوذا .
. . تعبق من جديد عطور العفص وإبر الصنوبر الندية المذوبة بعبق الأرض المبقعة بالكتل الهشة من التربة المنتفخة بالطحالب والأشنات .
. . بثور انفقعت وأخرى آن لها أن تنفقع عن فوهات عاتمة الخضرة مبقّعة بحبيبات سود .

تنحني متأملا هذا البركان الخامد الصغير . .
في قعر الهوة بقايا من فتات حمم . .
إبر صنوبر عتيق متيبس . .
أتربة فحمية هشة . .
قطع لحاء متنخر . .
بقايا هلامية لزجة لفطر الثعلب الهرِم .
تغرف بكفك من مزيج الدورق الترابي . . تقربه من أنفك وتستنشق عبقه ملء رئتيك . .
لحظة سكر عابرة تتجدد .
تواصل إبحارك السندبادي في بحور الغلالات الشافة وعماليق الظلال وأشباح الغواني الراقصة .
فجأة تخترق الأحزمة الضبابية السابحة أصابع ساحرات متشعبة مستدقة . . يمتد بعضها صوبك في حين ترتفع أخرى ، ممشطة شعورا كثة متشابكة خضراء تتدلى من بعضها جدائل معثكلة ملفوفة بشباك من خيوط العناكب .
. . تزيح الأغصان وتطفو على وجهك ابتسامة منتشية من دعابات الساحرات الطفولية ، التي تحاول استثارة خوفك الغريزي ونبش مكامنه . .
تحني رأسك مارا تحت أنامل الأغصان العارية . . تحس بالأنامل المستدقة تمشط شعر رأسك . . تسمع أنين تكسّر بعض هذه الأنامل الرقيقة . . تزيح البعض الآخر بأناة وحذر عطوف ، وأنت تواصل خطواتك . . تخشى أن تفسد دعاباتهن بكسر

أنامل رقيقة أخرى . . تسمع صرير حطام أطراف أخرى تساقطت عبر أزمنة متباعدة . . تحس حصيرتها الإسفجية تحت قدميك .

فجأة ، وكما تنزاح ستارة مسرح بأناة وبطء وصمت ، تتباعد الأبخرة وتشف . .

تنساب حزم متكسرة من الضوء بين الكتل الكثيفة الخضرة .

. . تخطو بضعة أمتار تجاه منابع الضوء . . ينبلج أفق رحيب لماع الخضرة تنزلق فوقه بقع النور المصفرة البراقة . .

تبدل الآن البقع النيّرة المخضوضرة أماكنها ، منسابة كحلم صامت عجول ، تاركة بين مجالات سياحتها أخاديد زرقاء وبنفسجية ، ومربعات صفراء وأخرى عاتمة الخضرة .

تعود من رحلتك تلك عند حلول المساء . . تفتح باب وطنك الصغير فتقابلك بحفاوة رائحة زيت الكتان الطرية ، المخلوطة بمزيج من محاليل المذيبات ، التي تذكرك برائحة علكة المستكي .

تزيح من على سطح اللوح الخشبي الواسع علب أصباغ وأنابيب الألوان الزيتية والفرش ، وسكاكين المزج المعدنية الرقيقة ، وصحونا ، وقطع ألواح زجاجية وأواني فخارية تستخدمها بديلا عن لوح مزج الألوان الخشبي .

. . تفسح مجالا لصفحة ورق حبيبية السطح ، خشنة ، مدغمة البياض .

. . تضع علبة ألوانك المائية العتيقة . . تفتحها بلهفة المحب .

. . تضع أكوابا من الماء .

تستل فرشاة ناعمة . . تبلّها ، ترطب بها حدقات الألوان . .
تعود من جديد في سياحة أخرى فوق سطح الورق .
تبدأ الصفحة بالاتساع . . تترامى أبعاد حواشيها . . يبدأ السطح الورقي بالتحول إلى عالم غامض .
. . تنساب مبحرا من جديد في متاهات أوشحة الضباب المتداخلة .
. . تتمايز وتتضح معالم جذوع السنديان الضخمة وخيمة أغصان الصنوبر الهفهافة .
. . ينفغر ثغر ذلك الوعاء العجيب من بثور تربة الغابة المنفقعة .
يتراكم ذلك الخليط العجائبي من حمم التربة ، وبقايا الغابة النخرة والأشنات في قعر ذلك الوعاء .
. . تفوح في الغرفة الصغيرة روائح رحم الغابة المظلم .
أشم من جديد ذلك الخليط من عطور العفص وإبر الصنوبر الندية ، وبثور التربة المنتفخة بالطحالب والأشنات ، وقطع اللحاء العتيق المنخور ، والبقايا الهلامية لعطر الثعلب الهرم .
تغص حنجرتك بغرغرة مكبوتة ، تندى عيناك ، تتصاعد حسرة مسموعة إلى شفتيك .
تهرع إلى باب الغرفة .
. . تفتحه على عجل .
. . قبل أن تضع قدمك خارجه ، ترفع رأسك إلى السماء مطالبا ، لا سائلا ، فسحة قصيرة أخرى من العمر .

إختر ميتتك!

الساعة الضوئية فوق كومدينو السرير تشير إلى الثانية . من الإطار المعدني القريب ، تتوضح اكثر معالم الوجه جامد النظرات والابتسامة .

يفتح العقيد الباب وهو يدندن لحنا فولكلوريا . . يدير مفتاح الضوء .

الزوجة العارية تغفو بدعة حالمة . . رأسها فوق صدر الرجل الأسمر العاري المستلقي إلى جانبها .

. . يتبادلان النظر هو والرجل العاري .

يتقدم العقيد بملابسه العسكرية بخطى ثابتة هادئة صوب جدار الغرفة . . يمد ذراعه على طولها ، منتقيا من بين الأسلحة الأثرية المعلقة ساموراي يابانيا . . يرفعه من علاقته الحريرية المذهبة فتتلاصف صفحته الفولاذية الصقيلة . . يمسك قبضته بكفه الأيمن . . ينظر لحظة بخشوع إليه وهو يرتفع إلى مستوى بصره . . يجس حدة حاشيته بإصبعه . . يرفع رأسه ويتقدم بالسلاح المتلامع الثابت في كفه ، وعيناه مصوبتان إلى جسد الرجل العاري المنكمش فوق السرير ، وكأنه يخترق ذلك الجسد ببصره في البقعة التي سيخترق فيها نصل السيف العتيق

طبقات الصدر المكشوف .
يقفز جسد الرجل الأسمر العاري إلى الزواية المحاذية لرأس السرير الواسع ، على حين ينقلب جسد المرأة اللدن البض الممتد في صحوة فزِعة فوق أغطية السرير الحريرية ، وترتّج العجيزة الممتلئة ، وينعقد الذراعان فوق الرأس المنكفىء ، ويصدر من الوجه المنحشر في الوسادة أنين مختنق مرتجف مذعور .
يواصل العقيد تقدمه بثبات ، وعيناه تترصدان حركات الرجل العاري الذي قفز إلى الزاوية نصف العاتمة من الغرفة .
بحركة سريعة مفاجئة تمتد ذراع الرجل العاري لتلتقط كرسيا قريبا . . يرتفع الكرسي ويصبح أداة دفاعية يهوش بها أمام الرجل العسكري حامل الساموراي . .
يلتفت العقيد التفافة مفاجئة ، رافعا السيف الياباني عاليا بذراعه . . تتوسع حدقتاه وتلتمع بالانعكاسات الضوئية . . يلتمع في الحدقتين برق متخاطف ، ويهدر رعيد صوت صارخ . . يوجه العقيد ضربة بالسيف الذي يدور بلحظة خاطفة لينزل من عليائه كنسر هاوٍ على فريسته .
. . يتطاير نثار شظايا من أرجل الكرسي المرفوع كالدرع . . يمتزج ضجيج الصرخة الهجومية بأزيز السيف المتحدر ، وقرقعة الخشب المتكسّر .
. . الضربة التالية تنزل باستدارة ثانية للمهاجم وسيف الساموراي المرفوع في يده . . صرخة الهجوم هذه المرة أكثر عنفا . . ترن أصداء صوت المهاجم ، وحفيف السيف ، وقرقعة

شظايا الخشب المتطاير من بقايا أرجل الكرسي المتكسرة . .
يقفز الجسد العاري الأسمر بحركة يائسة ، ويقف لحظة منتصبا فوق السرير ممسكا ببقايا الكرسي المهشم كدرع متثلم . . يعبر جسد الأنثى العاري الأبيض المنكفىء الغائر بين الأغطية ، ليصبح في طرف السرير الآخر القريب من باب المخدع .
يهرع الجسد الأسمر العاري عبر صالة الجلوس متوجها صوب باب الشقة . . يصطدم بمقعد واطىء ، يتعثر ثم يسقط . . يتلقى الأرض بكفيه . . يرتفع الجسد مستعينا بذراعيه ويتجه بهيكله المنثني فتبرز عجيزته المشدودة إلى الخلف . . تتهدل خصيتاه وتتأرجح . .
يفلح الجسد الأسمر العاري بوضعه هذا من الوصول إلى رتاج الباب . . يفتحه بارتباك . . قبل أن يستقيم الجسد من جديد ، تهوي الصفيحة الفولاذية فتصيب هذه المرة الكتف الايسر وتغور عميقا .
. . يسيح دفق دموي على الظهر المنحني ، وعلى رمانة الكتف . .
تفتح الباب . . يمرق الجسد العاري إلى المساحة المربعة الصغيرة أمام باب الشقة . . يحاول أن يستقيم بجذعه ، مستعينا بالإمساك بكفه الأيمن خشب إفريز السلم . . يغور السيف من جديد . . الضربة تصيب الكتف الايمن هذه المرة . . يشخب الدفق الدموي على الجانب الأيمن من الظهر ورمانة الكتف . .
يسقط الجريح منهكاً على حافة العتبة الأخيرة من السلالم .

. . يحاول أن يستعيد قدراته وينهض . . يستند بكفيه على أرضية الفسحة الرباعية . . يرفع نصف جسده العلوي . . يرتفع الرأس .

. . تمرق صفيحة السيف الفولاذية المتلامعة مرة ثالثة كبرق خاطف عبر الرقبة المرفوعة .

. . يتدحرج الرأس وينطّ . . ينط . . ينطُّ بشكل متناغم مع الدفق المتصاعد من نافورة الدم المندفع من جذمة الرقبة المجزوزة .

. . تك . . دنْ . . دُمْ . . تكْ . . يتنطط الرأس المتحدر درجة ، فدرجة ، فدرجة ، فدرجة . .

يستقر الرأس بحدقتيه المتسعتين المفزوعتين على مربع التفافة السلم . . تتحرك الشفتان وتجمدان . . دن . . دن . . دن . . دن . . أتلمس رقبتي . . أنصتُ وعيناي المحملقتان تتجهان بجمود إلى أعلى سقف الغرفة . . بقع وحلقات نور وردية تسبح في السقف . . ساعة صالة الجلوس تدق ضرباتها الاثنتي عشرة .

ادير رأسي إلى اليمين .

أنظر بانبهار إلى المرأة العارية التي تغفو بدعة على السرير لصقي فوق الأوراد المنثورة للأغطية الحريرية .

أميل فوقها وأطبع قبلة رقيقة حذرة فوق خدها .

. . أعاود النظر من جديد إلى الجدار المزخرف بالأسلحة الأثرية . .

الساعة الضوئية تشير إلى الثالثة والنصف ، من الإطار المعدني للصورة ، تتحول النظرة الشزراء القاسية إلى أخرى ساخرة متشفية . .

يفتح باب المخدع . .

يتسمر العقيد بقامته الفارهة المشدودة عند عتبة الباب ؛ وهو يحدق عبر ضياء مصباح السرير الجانبي الخافت إلى الجسدين العاريين فوق أغطية السرير العريض . . عيناه تتسمران فوق مثلث الزغب الأشهب للأنثى العارية ، التي راحت في إغفاءة عميقة ، ووجهها الساكن تنطبع على شفتيه المكتنزتين مخايل ابتسامة حالمة ، تنتقل عيناه إلى العضو الذكوري المرتخي الراقد على حاشية فخذي الأيمن ، بقبعة الشعر الأسود الذي تعلوه . .

. . يستمر في تحديقه المصعوق .

أستدير بهدوء وأنظر إليه بعيون خالية من التعبير . . تظل الملاءة المكوّرة فوق إحدى قدميّ على وضعها دون حركة . .

يستدير العقيد بوجهه صوب الحائط الذي يتلاشى فوقه الضوء الخافت المنسكب من مصباح السرير الجانبي . . تزداد العتمة في الزاوية القصوى . . تتلامع الأسلحة الأثرية المعلقة عليه بين خطوط ظلالها المرسومة بحدة في الجانب الآخر المواجه لمصدر النور .

. . يتحرك بأناة صوب الحائط .

يمسك بمقبض الكرة الحديدية المسودة ذات السلاسل ، فتهتز

وتبرق مساميرها المتلامعة كأنياب فهد جائع . . يرفع سلاح فرسان القرون الوسطى هذا عن الحائط ، فتهوي الكرة الحديدية الضخمة وتصخب سلاسلها قبل أن تستقر بثقلها متدلية بثبات من أطراف السلاسل .

. . يمسك مقبض الصولجان بقوة أكثر فتنوس الكرة المسننة من نهاية القضيب الفولاذي الممتد كمشكاة عتيقة عاتمة مسوّدة بهباب قرون من الأزمان الغابرة . .

أسحب قدمي من فوق أغطية السرير . .

. . أنزل يسراها لأرتكز بها على أرضية الغرفة .

. . أثناء رفع نصفي العلوي من على السرير ، يتقدم العقيد خلالها خطوتين من الجانب الآخر متجهاً صوب الباب المشرع . .

. . «إنه يقطع عليّ خط الهروب!»

. . يقترب من الباب!

. . بحركة سريعة مفاجئة يرفع صولجان الكرة ذات الأنياب السود ويهزها بحركة دائرية فوق رأسه .

. . تتوتر السلاسل ما بين الصولجان والكرة .

. . تدور الكرة بشكل أسرع . .

. . تصدر الكرة والسلاسل قرقعة وفحيحا عبر صفحة الهواء الممزق .

. . يزيد من سرعة تدويرها . . يزداد الفحيح . . تزداد القرقعة .

. . أقف الآن منتصبا على الجانب الآخر من السرير . . رأسي

يهتز ويدور ، وجسمي ينزل ويعلو مع كل استدارة للسلاح الثقيل الدائر فوق رأس العقيد .

. . ترتفع كفاي وتتباعدان على مستوى الكتفين . . يميل جسمي يمينا ويسارا اتقاءً للكرة التي ستطير باتجاهي . .

. . يستدير العقيد نصف استدارة وهو على تدويره المتسارع للكرة والسلاسل والصولجان .

. . يصرخ صرخة حرب همجية وتنزل الكرة بارقة كشهاب متحدر من السماء .

. . أرفع ذراعاي وأصالبهما فوق رأسي ، مقرفصا على الأرض بجانب السرير . .

أسمع قرقعة صندوق خشبي فارغ يتهشم . .

. . أحس برشة مطريّة لزجة فوق جبهتي تغطي كفّي ووجهي وأجزاءً من رقبتي وصدري .

ترتفع عيناي من وضعي المقعي . . الشعر الأشقر لرأس الحسناء المهشم فوق الوسادة يختلط بكتلة هلامية بيضاء ذات تلافيف حلزونية معقدة . . برك حمراء تنبض بدفق متواتر رتيب أحمر . . الذراعان والساقان البضان الممتلئان تعروهما ارتجافات غير متناسقة فوضوية ، على حين يهمد الصدر والبطن المخملي دون أدنى حركة .

. . تتوسع بقعة الدم على الملاءات البيضاء كما يتوسع حيوان الأميبا المنكمش . .

بحركة لا واعية أمد كفي لألمس الجسد اللدن الذي همدت

حركة أطرافه .
أسمع فرقعة وفحيحا من جديد .
. . العقيد يتقدم والكرة تطير في حركة دائرية من سلاسلها المشدودة .
. . يتقدم ويلتف حول السرير الى الجهة الثانية ، حيث أقف شبه مصعوق . . يتقدم صوبي . .
. . قبل أن يصل إلى زاوية السرير المحاذية ، وجدتني أطير قافزاً لأقف فوق السرير ، وساقاي تنفرجان فوق الجسد الهامد العاري .
. . من مكاني فوق السرير أنظر إلى خصمي المهاجم مترصدا حركته القادمة .
. . تطير الكرة وتفحّ في الهواء ، ومع تناهي صليل السلاسل المتضاربة في طيرانها ، أُقعي فوق السريرمن جديد فتلمس عجيزتي ثدييّ الجسد العاري البارد الرجراج من تحتي .
. . يقشعر بدني .
. . تئز الكرة في طيرانها وتقرقع السلاسل .
. . زجاج يتكسر وشظايا صغيرة تنغرز في وجهي وعنقي . .
يتمزق جسد ليدي هاملتون العاري المعلق فوق السرير ، ولا يبقى من غطائه الزجاجي إلا نتف صغيرة في زوايا الإطار الخشبي المتهشم .
أنظر مصعوقاً إلى الجسد الورقي المجعّد الممزق في الإطار المهشم فوق رأسي .

. . أقفز ، لحظة وأجد نفسي بعدها في الصالة الوسيعة .

. . أرفس برجلي الكنبة التي تعترضني . . أركض . . أصل إلى رتاج الباب . . يا إلهي إنه لا ينفتح . . أحاول مرة أخرى وغصة من اليأس تخنق زوري . . الحقير ، النذل ، المجرم ، اللعين لا ينفتح . . أخيرا أكاد أبكي فرحاً من المحنة التي انفرجت . . ينفتح الرتاج . . أسحب الباب صوبي . . تبان فرجة صغيرة من الضوء الآتي من الخارج . . أسمع قرقعة هائلة فوق هامتي مباشرة ، وتتناثر شظايا الخشب مارة فوق رأسي ، وترتد الباب الموارية لتصطفق بعنف منغلقة من جديد . . اشم رائحة الخشب الهندي .

. . الكرة الحديدية المسننة كانت قد تعدتني منغرزة في خشب الباب العتيق . . تقرقع سلاسلها ويرتطم صولجانها المتأرجح بعنف في صدغي الأيمن .

. . صداع ودوار .

. . أنظر إلى الخلف بفزع . . العقيد بعينيه الجاحظتين ، وشعر رأسه الكث المنتصب يقترب مني كزوبعة سوداء . . جسمي يستدير دون إرادتي . . أواجهه .

إهْ! إهْ! . . قدمي ترتفع فجأة وتندفع بعزم صوب بطنه المحزم بالنطاق العسكري العريض . .

إخْ! إخْ! خذْ جورت ببري نخال بودليست!! . . خذ! خذ! . . يسقط العقيد ويتلقى الأرض بيسراه . . في الحال يرفع رأسه ونظرة غضبه الحارقة تخترقني . . . . يدفع جسده إلى الأعلى

بكفيه المسنودتين إلى الأرض .

أقفز . .

أنا في الساحة المربعة المضاءة الواصلة لأبواب الشقق المتجاورة الثلاث . .

أحد الأبواب مشرع . . يقف رجل مسن على عتبته مصعوقا أمام مشهد جسدي العاري المجرّح الدامي .

. . أمسك بحاشية سياج السلالم الهابطة .

. . يختضّ جسدي بزلزال ساحق .

. . أستلقي على الأرض هامدا ، وعيناي ترقبان بذهول ذراعي المبتورة التي لا تزال تتشبث كفها بحاشية السياج ، ويتهدل ساعدها وعضدها المهشم . . شظايا العظام البارزة من نتف اللحم للذراع المهشمة تتقطر دماً .

. . الرجل المسن الذي يقف على حاشية عتبة الشقة المجاورة يتقيأ .

. . أرفع بصري المختض المشوش قليلاً لأرى الكرة السوداء ترتفع عن جسدي بنتف لحمية دامية . . تعود لتكبر وأنيابها المشرعة تتضخم وتقترب . . لا أستطيع حراكاً . . عيناي تنطبقان .

. . السلاسل العملاقة تقطع الأفق . . دومْ . . طاق . . طق ، طق ، دوب .

. . تدخل الكرة بكاملها قفصي الصدري . . تتدفق نافورة الدم . . فمي يمتلىء بسائل كثيف . . طعم الدم اللزج مالح ، وزفرة السمك القديم تملأ خياشيمي .

. . أتلمس صدري . . أتنفس الصعداء . .
أنظر من مكاني فوق السرير إلى حزم النور الخافتة العابرة للنافذة العريضة . . حزم النور تتقطع بنديف الثلج المنهمر بسكون . . جميل أن يتابع المرء جحيم الشتاء القطبي من جنته الدافئة . . من على أغطية السرير الحريرية . . من الجو المضمخ بالعطر والحب والشبق . . من جوار حورية بر عارية . . سمكة تتلاصف معالمها الطرية البيضاء الوردية من فوق زهور الأغطية المنثورة . . سمكة تسبح في مرج من الزهور .
أميل ببطء . . أحتضن المرأة الغارقة في أحلامها الشبقية البهيجة برقّة . . أقبلُ مرج البطن المخملي عند نبع السرة . . يترجرج المرج .
أجلس متكئاً بظهري إلى مسند السرير . . أتابع رصد الأسلحة المعلقة على الجدار بمواجهتي . .
الساعة تشير إلى الرابعة والربع . . حدقتا العقيد تتسعان وتبرزان خارج حاشية الإطار . .
يفتح العقيد الباب بعنف .
يقف في الإنارة الوردية الضبابية الخافتة في ملابسه العسكرية ؛ كشبح والد هاملت المغدور في صمته ودروعه .
يصوب الشبح العسكري نظرات جوفاء إلى الزوجة والعشيق العاريين . . ينتفض بشدة .
. . ها هو يتقدم بخطى مجنونة سريعة . . يصل إلى الحائط ، يلتقط طبراً مغوليا تزخرف صفحته الفولاذية المتلامعة

تشكيلات زخرفية متداخلة سوداء . . مقبضه الخشبي ينتهي بسيور جلدية ملفوفة بشكل حلزوني ، وينتهي أسفله بسير جلدي عريض . . يدخل العقيد كفه بين السير الجلدي ويمسك بتصميم عنيف نهاية المقبض . .

. . يعبر المسافة الفاصلة بينه وبين موقعي فوق السرير ببضع قفزات عريضة كلاعب كارتيه محترف . .

يصرخ صرخة حرب مغولية شرسة .

تنطلق صرخة فزع من المرأة العارية فوق السرير .

. . قبل أن أستعيد وعيي من الحركة المفاجئة ومن صدى الصرختين ، وقبل أن تستطيع كفي أن تمسك بحاشية رأس السرير بالقوة الكافية للقفز فوق أفرشته . . تتسمر عيناي على ذراع العقيد المرفوعة فوق مستوى الرأس ، وعلى الصفحتين المتلامعتين على جانبي شفرة الطبر ، النازلة كشريط برق منحدر . . يقدح شرر عينيه الجاحظتين الملتهبتين بالغضب .

أحسست بصفيحة جمر وسيعة تشق هامتي وتنزل على الجانب الأيمن من الجبهة .

. . يستمر السعير المنزلق ليصل إلى زاوية العين عند أعلى الأنف .

تندلق الكرة الزجاجية الرجراجة من محجري الأيمن الفائض ببحيرة الدماء . .

. . تلتف الحدقة السوداء لكرة العين المنزلقة المعلقة فوق

وجنتي ؛ فتواجهني بنظرة تساؤل خرساء .
أتمعن في حاشية نصل الطبر المنغرزة في رأسي وهي تبرز بزاوية متقوسة تحت منعقد الحاجب .
. . أتخيل حاشية الصفيحة الفولاذية العريضة الأخرى الخلفية وهي تبرز من وراء هامتي المفلوعة . .
يقفز جسدي عاليا بحركة لا إرادية ، ويلتف ويسقط فوق الأفرشة .
. . ينطّ جسدي مرتين يتهاوى ويتكوّم بعدها فوق جسد المرأة الأبيض العاري . . جسدها مبقع بلطخات الدم المتطرطش من يافوخي المنفلع . .
ينقطع الهلام الذي تعلق فيه عيني المندلقة . . تسقط الحدقة الزجاجية مع خثرة دم كبيرة فوق بطن الأنثى اللدن الرجراج . .
تتدحرج كرة العين لتستقر فوق زغب العانة الأشقر . . تنطلق صرخة هلع بدائية من الأنثى العارية . . يدفعني جسدها المنتفض بجنون ويلقي بي بعيدا .
أتدحرج على أرضية الغرفة من الجانب الآخر للسرير القريب من الباب . . أنتفض كديك مذبوح مرة أخرى . .
. . قفزة همجية فوضوية أخرى عبر باب الغرفة المشرع . . ها أنا الآن أسقط متكوماً فوق أرض الصالة .
. . أقفز مستديرا في الهواء وملتويا لأسقط على طاولة الصالة المدورة .
. . تتهشم أرجل المنضدة . . أتدحرج بين مقعدين جلديين

وثيرين . . أمسك بطرف المقعد الذي يتخضب بكتل الدم نصف الخاثرة .

اللاوعي الغريزي يرميني بقفزة مرعوبة على باب الشقة . . ينفتح الرتاج .

أسقط على جنبي الأيسر في المساحة المربعة لموزع الشقق الثلاث .

. أنقلب على جانبي الأيمن وأهمد ، إلا من حركة تشنجية أخيرة قصيرة لأصابع قدميّ . . تتوسع حدقة عيني اليسرى المنفتحة على سعتها .

يقفز الجسد الساكن الدامي للمرة الأخيرة ويهمد من جديد .

تنطلق صرخة هلع . . يسقط الجار الذي كان يقف عند عتبة شقته متابعاً المشهد مغمىً عليه .

. . لحظة صمت ثقيل .

يتقدم العقيد ببطء . . ينحني على جسدي الهامد . . يشد البلطة المغولية من مقبضها . . لا يفلح في انتزاعها من جمجمتي . . يعيد الكرة بكفيه معا وبذراعين متوترين . . يرمي بجسده المفتول إلى الخلف وبصرخة إه ، هه!! يفلح في سحب السلاح المنغرز في جمجمتي . . يكاد يسقط على ظهره من عزم السحب العنيف . . يتوازن أخيرا ويفلح في أن يقف منتصبا .

. . يمسح حاشية الطبر الدامية بمنديل يخرجه من جيب سترته . . ينظر إليّ وأنا أحملق بعيني اليسرى الغائمة المحتقنة بشعيرات شبكية حمراء وزرقاء برهة قبل أن يعود بهدوء

وبخطوات قصيرة وئيدة إلى غرفة النوم . . ينظر إلى الأنثى العارية المقرفصة الراجفة فوق السرير نظرة جانبية . . تزداد قرفصة الجسد العاري ويزداد ارتجافه . . يحيد ببصره عن السرير ويتقدم ليعيد الطبر المغولي إلى مكانه بين الأسلحة المعلقة على الحائط .

تشير الساعة الآن إلى الرابعة والنصف . .

أتلمس رأسي وأعلى جبهتي وعيني اليمنى .

الضوء الخافت من مصباح جانب السرير يضفي خطوطاً وحواشي من الظلال على الجسد الممتلىء العاري ، وعلى تفاصيل الوجه المسترخي بابتسامته الغامضة الوديعة ، وبالخصلات الشقراء المبعثرة على الجبين وأقسام من الحاجبين . . تتهدل أنسام الخصلات فوق الوسادة المنثورة بزنابق وردية وبنفسجية تزيد من جمال وغموض الجسد العاري الغارق في صوت الانفاس الهادئة المنغّمة والعطر الشفيف المندلق بين الظلال .

. . أسيحُ ببصري مبتدءاً من الأصابع الملونة أظفارها باللون الوردي الخفيف ، والتي تعلو القدمين الصغيرتين الطفوليتين بامتلاءتهما . . أصعد بأناة إلى الساقين الرشيقين الأقرب إلى القصر . . إلى الفخذين باستدارتيهما اللدنة التي لا تترك فسحة بينهما غير خط غامق منتظم . . ساق الخط بين الفخذين المتلاصقين يرسم مع كأس الزغب الأشقر زهرة اللوتس . . الزهرة الشهباء تسبح تحت رجراج الحوض الفسيح

والبطن المخملي .
أرتقي إلى النافورة الصغيرة الغائرة قعرها وسط هذا المرج الأبيض . . إلى القمرين المزهرين بالحلمتين ، اللذين يطلان من مرتفعهما على مروج السفح . .
أميل وأغمر وجهي برقة في السفح الرجراج . . تموء كالهرة النعسة . . تحتضن رأسي بكفيها وتجرّه إلى تحت ، إلى غرق أعمق .
. . عطر ربيعي يسكرني شذاه .
. . أقبل الزهرة العطرة .

***

كانت قاعة أعمال فروبل تسبح في زرقة لوحاته الحالمة بإنارتها الخفيفة التي يصعب على المشاهد أن يكتشف مصادرها .
لم يكن في القاعة سواها ، لمحتها من الطرف الآخر للقاعة .
. . معطف وقبعة صغيرة من فراء السمور على قامة هي الأقرب إلى القصر .
كانت تقف في تأمل ذاهل أمام أحزان الشيطان المستوحش المعتزل فوق جبله ، بين ازرقاق السماء والأفق البعيد المنفرج بخيط أرجواني من الغروب .
وقفتُ إلى جانبها بسكون . . صامتا رحت أتأمل اللوحة الضخمة بعين ، وبالعين الأخرى أسترق البصر إلى الوجه النوراني الحالم بجانبي . .
- ألا ترين أن الكون كله بالصخور العزلاء والفضاء اللامتناهي ،

وزرقة الأعماق في السماء والأفق ، تغرق المشاهد في حزن هذا الديمون المستوحش ؟ . . هذا الشيطان الذي يلعنه كل من في الكون في أية محنة قاسية يتعرض لها .

. . لقد استدر فروبل تعاطفنا معه ، تعاطفنا مع إبليس ومحنته في عزلة الرفض الأزلية .

– نعم ، نعم . . حتى البكاء ، حتى البكاء!

بعد فترة صمت غير قصيرة قالت ذلك بصوت مرتجف خنقته العبرة .

يا إلهي . . أي حزن ووحشة عند هذه الحسناء . . ولاحزن ابليس المنبوذ ذاته في اللوحة .

« . . مستوحد أنا مثله . . أنا في وحشة كبيرة كوحشته يا جميلتي! . . انا في عوز ممض إلى رفقة ترفة كهذه . . »

لازمتها في التجوال البطيء في قاعات المتحف ، ولم أعلّق إلا على أهم اللوحات وبإيجاز كبير ، وتجاوبا مع تعليقاتها في أغلب الأحيان .

« . . هذه المرأة في منتصف الثلاثينات ، مترفة وعلى ثقافة جيدة ، رومانسية ومستوحشة .

أهي من الوسط الفني ؟ أم أنها ابنة لدبلوماسي من بقايا الأرستقراطية الروسية العتيقة . . هي في لحظات ضعف الاستسلام السهل . . لا تكن أحمق فتضيع فرصة من فرص العمر النادرة . . » .

كان الجو باردا ومثلجا في الأزقة العتيقة المجاورة التي بدأ الظلام

يلفّها على عجل .
اقترحتُ عليها الجلوس في مقهى وبار أنيق صغير كنت أرتاده منفردا أو مع صيد جميل عابر ، وكانت أجواؤه الرومانسية غالبا ما ساعدتني على لف شباكي برقة واحكام .
لم يكن هنالك في المكان ذي الانارة الخالمة إلا أنفار على موائد متباعدة .
توجهت بها إلى ركني المنعزل المعتاد .
– قدح من الكونياك يبعد برد الجسد والروح ؟
أجابت بهزة موافقة من رأسها مع ابتسامة حزينة .
قدح ، قدحان ، وفي الثالث ومع الحديث الذي بعث الكونياك فيه الدفء والخيال الخصب ، تناولت كفها الصغيرة في راحتي بشكل عفوي ، وواصلت حديثي ، وعيناي تشاركاني كلماتي . .
مرت ساعتان وبدأت ابتساماتها تزداد وضوحا ومرحا .
. . قبلت أنامل كفها . . راحتها .
– هنالك اقتراحان ، الأول أن نتناول عشاءنا في مطعم أربات ، والثاني أن نزوغ من الموائد والجرسونات والزبائن الذين قد لا ترتاحين إلى مظهر أحدهم أو نبرة صوته المرتفع فنذهب إلى غرفتي . . ستجدين عدداً لا بأس به من اللوحات التي أريد رأيك فيها . . أضف إلى أنني طباخ ماهر . . ها ؟ . . ما رأيك ؟
– هنالك اقتراح ثالث!
قالت ذلك مبتسمة ثم صمتت لفترة قصيرة وتابعتْ :

. . أن نذهب إلى شقتي فهي جميلة وواسعة ، وهنالك ما هو شبه جاهز ومُعدٌّ من العشاء ، ولا يحتاج إلى مجهود كبير ليوضع على المائدة .

« . . اقتراح ولا في الحلم!»

دفعت الحساب وخرجنا وأنا سكران لا من الأقداح الصغيرة الثلاثة ، ولكن من المفاجأة الاسطورية .

. . كنت أكثر ثقة الآن في أن أضمها إلى جانبي بذراعي ونحن نسير .

في التاكسي إلى منطقة سكناها ، في بقعة سكنية أنيقة قرب سفوح نهر موسكو الخضراء ، ضممتها إليّ وقبلتها بحرارة شبقية . .

. . كانت استجابتها مشجعة .

صعدنا بمصعد العمارة إلى شقتها في الدور الخامس .

حين كانت تُعد مائدة الطعام ، توجهتُ دون استئذان إلى الحمام الأنيق ، لأخرج منه عارٍ إلا من برنص الحمام الذي تعمدت أن أتركه مفتوحاً على سعته وأنا أجلس إلى المائدة .

. . كانت هي الآن أيضا في رداء نوم وردي بصدر مفتوح ، يكشف أجزاء ثرية من النهدين الصغيرين المكورين .

رشفنا قدحينا من الكونياك في الصالة على أريكة وسيعة .

حين اقتربت بها من باب المخدع أسقطتُ عنها رداءها الرقيق عند عتبة الباب ، لأدخل بها إلى الغرفة التي فاح منها عطر

(ليالي موسكو) .
الغرفة لا تنيرها إلا حزم خفيفة من أضواء منعكسة من المتنزه القريب ، تصل بعناء إلى طابق العمارة الخامس حيث نتواجد . كانت ظمأى ، يحرقها عطش روحي وجسدي معا .
. . حين ولجتها لم أتمالك من أن أطلق آهة طويلة نشوى ، كنت كمن يغوص في قوقعة بحرية رجراجة ، تأخذني إلى اعماق سحرية لا قرار لها . . لم أكن أريد أن أصل إلى قرار القاع ولا سماء ذروة اللذة ، كنت أتعمد أن اطيل غوصي أعمق ، وأعمق ، أعمق وأطول . . كنت أطيل غرقي في اللجة .
. . بدأت امواجها ترتفع . . صخب الزوبعة القادمة في جسدها وروحها يلفني بتياراته . . كنت بجسدي وروحي وخيالاتي الجامحة أكتشف وأنا أغوص ، كل مجاهل اعماق القوقعة الرحمية .
. . كنت أعود إلى رحم الخليقة .
أفقت من موجات نشوتي لأجدها تنتحب وتغصّ بعبرات مكتومة .
. . أخذتْ تضحك بخفوت . . كركرة . . جذلها يعلو . . كركرة . . جذلها يصخب .
. . أحاطتني بقوة وحشية بدائية ، وضمتني إلى صدرها الناضح بالعرق المعطر . .
– تي ميلي موي . . تي ردنوي!
أتاني صوتها الخافت المختنق بعبرة النشوة .

أضأت المصباح فوق منضدة السرير المجاورة . . أوشحة الضوء الوردي غمرت الغرفة .

. . أدير رأسي وأتأملها من جديد . .

. . لقد خرجت حسنائي لتوها من قماش لوحة لروبنس . .

مساحات لامعة وردية مكتنزة ، وظلال بنفسجية عاتمة بين تضاريس الجسد الممتد باسترخاء وليونة فوق أزهار وزنابق منثورة من أغطية السرير الحريرية المكوّرة . .

– هل عندك سجائر في الغرفة ؟

أجابتني بهزة رأس كسولة وإشارة من إصبع كفها الأيسر إلى الكوميدينو الذي بجانبي .

نظرتْ إليّ بعينين ذابلتين منتشيتين ، دبّ فيهما تعب رحلة المتعة التي ما زالت موجاتها تظهر فوق الشفتين المبتسمتين بخدر . .

أطبقتْ اجفانها بكسل وراحت أنفاسها تعلو مع ارتفاعات صدرها المتعرق ، في حين ظلت الابتسامة الكليلة تبان فوق شفتيها .

بقيتُ لحظة سارحا في الصورة الميثولجية الحية أمامي ، قبل أن استدير لأبحث عن علبة السجائر في درج منضدة السرير الجانبية .

جابهتني صورة فوتغرافية بإطار معدني أنيق .

. . أطلّ على وجه عريض بعينين وسيعتين من تحت قبعة عسكرية مزينة الحوافي ، بسترة تحمل نجوم عقيد كبيرة فوق

الكتافتين . . أوسمة وأشرطة خدمة ملونة فوق الصدر العريض . .
لحظة تأمل قصيرة للصورة ثم . .
. . «ما علينا . . هي صورة أبيها قبل سنين!»
وجدتُ أخيرا علبة سجائر أجنبية فاخرة مع ولاعة رونسن في جرار الكوميدي .
. . حين رفعت رأسي مولعا سيجارتي ، جابهني جدار الغرفة الذي امامي . .
. . الجدار يكتظ بأنواع الأسلحة الأثرية لبلدان عديدة . .
بعض الاسلحة المعلقة كانت حديثة الصنع .
. . سيوف يابانية ومغولية وصينية وهندية . . دروع من الفولاذ والحديد العتيق المسوّد ، وأخرى من الجلود الغليظة . . رماح أفريقية وأخرى من قرون أوربية وسطى . . سهام البوشمان والتوتسي والزولو . . كرات ضخمة مسننة بصولجاناتها ذات السلاسل الثقيلة . . خوذ وصدارات مزردة . .
أخذت أمسح متحف الأسلحة هذا ببصري من زاوية الجدار البعيدة العاتمة إلى الأجزاء المواجهة لي تماما .
. . من وراء أحزمة دخان سيجارتي ، رحت في سياحة غرائبية في مجاهل الغابات الأفريقية ، وصحاري استراليا ، وقلاع الهند ، وسهوب منغوليا ، كنت الآن مقاتلا أبدل أزيائي ودروعي وسيوفي وصولجاناتي . .
– أولعْ لي سيجارة من فضلك!
التفت صوبها ، كانت قد استندت بظهرها إلى خلفية السرير ،

وعيونها لا تزال غائمة بنظرة إلى مجهول يمتد بعيدا وراء تفاصيل جدار الأسلحة الذي تصوب نظرها عليه . .

– ها قد أفقتِ يا عزيزتي . . لم تطلْ إغفاءتكِ كثيرا .

– لم تكن إغفاءة يا حبيبي ، لقد كان ذلك غرقاً وتيها في ضباب ومحيطات عوالم النشوة .

أولعتُ سيجارة ووضعتها في فمها بعد أن طبعت على شفتيها قبلة سريعة .

– صورة من هذه ؟ مشيراً بالتفاتة من رأسي صوب منضدة السرير القريبة مني .

– إنه ايفان زوجي .

قالتها بهدوء متراخ متعب ، ونفثتْ دخان سيجارتها ببطء .

– ومنذ متى وأنتماً منفصلان .

– لسنا منفصلين .

– ولكن معذرة لسؤال قد يحرك أشجانك ، هل فقدتيه في حادثة أو مرض؟

– كلا إنه حي وفي صحة ومتانة ثور أسترالي .

– لابد وأنه مسافر إذاً إلى بلد بعيد في مهمة عسكرية طويلة .

– كلا أبدا . . هو في استانكنا في وحدة الدروع هناك ، هو قائد كتيبة للدبابات .

«استانكينا . . أي نصف ساعة إلى عش غرامنا هذا . .»

– يأتي إليكِ في أيام العطل ، أو ربما في أيام محددة من الأسبوع .

- ليس تماما ، أيام معدودة يُستدعى إلى هناك ليلا لظروف طارئة ، وأخرى حين تكون له نوبة دورية ليلية .

كانت إجاباتها مختصرة ، لم تتبدل نبرة صوتها فيها لا إلى استغراب ولا إلى مفاجأة حتى ولم تظهر أية رنة حذر فيها .

. . كانت تدلي بتفاصيل عادية تماما . . مجرد حديث استرخاء منتش مع سيجارة .

تمالكت نفسي من أن يظهر أي تبدل في نبرات صوتي أو جلستي المسترخية مع المعلومات الأخيرة حول معسكر وحدته القريب .

- لابد وأنه يسرع إليك أحيانا ، قادما لسويعات دافئة ليلية معك في الشقة ، حين تخنقه كآبة الفراغ وروتين بعض الأعمال الصغيرة الليلية ، التي يمكن أن يكلف بها من هو أصغر رتبة منه للقيام بها .

- نعم يحصل ذلك بين حين وآخر .

« . . هل تختبر هذه الحورية النزقة اللعينة قوة أعصابي وشجاعتي . . أو لنقل مدى حجم تهوري واستعدادي للمغامرة . . ما مدى صحة ما تقول . . كيف لي أن اتأكد دون أن أهز مظهري الصلب المندفع أمامها . . وهل . . ، و . .؟ . . »

عاد بصري بشكل لا إرادي إلى الأسلحة الأثرية المعلقة على الجدار . . تفاصيل الأسلحة وأجزائها بدت أكثر وضوحا ، طولها ، ثقلها ، حدة حواشيها ، مدى إمكانية وسهولة إصابة

أهدافها ، فيما لو قُذفت عن بعد بضعة أمتار . . طرق تحاشيها أو درئها . .

أحسست به ينتعض من جديد . . متوترا حتى الألم . . دف لذيذ يبدأ يلفني سارياً من أسفل حوضي وحتى شعيرات رأسي التي أحسستها تلتهب وتنتعض هي أيضا .

. . وجهي شعلة من لهب . . إثارة الموقف الخطر ؟

دون أن أطفىء المصباح الجانبي القريب . . ملتُ تجاهها بشكل مفاجىء لم تكن تتوقعه .

أمسكت بكتفيها ونظرتُ إلى وجهها المتورد ، وعينيها العسليتين بإمعان . . تاه بصري في أعماقها عبر النافذتين العاتمتين المدورتين وسط البحيرتين العسليتين ، كنت كمن ينوِّم شخصا مغناطيسيا ، وهو نفسه غائر في لجته العميقة . . سحبتها بعنف تجاهي . .

كان دخولي الجديد اقتحاما متحدياً هائجاً أحاول فيه كسر كل حصون ، كل أسلحة ، كل دفاعات ، كل متاريس المرأة ، رغم انفتاح كل بوابات الجسد المستسلم ، المنفعل ، المتجاوب ، المطالب بالعنف الأكبر ، ورغم الروح التي بدأت تضيع في دوامات فوضى الحركات العنيفة التي تهز اركانها .

. كانت نداءاتها الصارخة مناشَدةً ، واسترحاماً ، وتحدياً ، وفورة غضب ، لجوع دهور من الحرمان والترقب . . أصداء من إثم الخليقة الأولى ، ورغبات أنثى الكهوف والبراري وصخب العشق الواعي للمرأة المتمدنة ، ودعارة نسوة الحارات المنزوية

المظلمة المحافظة .

. . كان طول الالتحام وعنفه سبباً في إغفاءتها المنهكة المهزومة ، التي لم تسمح لها حتى بامتداد نحيب مكتوم أو ضمة عرفان أو كلمات عشق للّذة الصاخبة التي بدأت تضمحل وتنسحب .

. . لحظات وكان صوت شخيرها الضعيف يتصاعد ، وهي تضع رأسها بشعره المنفلت على صدري المبلل بالعرق .

أملتها وأعدتها بهدوء إلى وسادتها برقة أم تضع طفلها وهو يروح في إغفاءة سعيدة بعد رضاعة هنية عامرة من صدرها . .

رتبت الوسادة ليرتاح الرأس الذي بدأ وجهه بالذبول .

وضعت روب الحمام الملقى على أرض الغرفة فوق كتفيّ وانسللت بحذر إلى الصالة العاتمة إلا من ضوء المتنزه القريب .

. . درست وضعية المقاعد والطاولة الوسطية .

. . بحثت بعينيّ عما يصلح تناوله بسرعة واستعماله كآلة دفاعية عند وقوع الخطر المقدّر .

. . لم أجد شيئا يسهل إمساكه والتشبث به كسلاح دفاعي ، غير مصباح الزاوية ذي العمود المعدني ، والقاعدة العريضة .

. . درست المسافات إليه من كل زوايا الصالة .

تأملت وأعدت دراسة الموقع ببطء وأناة .

حين فتحت باب الشرفة وخرجت وأنا نصف عارٍ لأدرس الشرفة وأبعادها . . جابهني برد قارس .

. . لففت البرنص أكثر حول جسدي .

. . الشرفة ضيقة لا مجال للمناورة فيها ، وشرفة الشقة المجاورة تبعد أكثر من مترين عنها . . هززت رأسي .

« . . لا خلاص يرجى» .

. . أطللت من سياج الشرفة الحديدي .

. . ممشى كونكريتي يلتف حول قاعدة العمارة . .

إطلالتي عليه من موقعي في الطابق الخامس تصيبني بالدوار .

. . أسقط بصرخة مكتومة . . أنقلب في الهواء أثناء سقوطي دون إرادة مني ، بحكم أثقل نقطة في الجسد . . عيناي تنطان من محجريهما بفعل السرعة المتزايدة ، وفق قانون التعجيل في الأجسام الساقطة . . أحشائي تندفع إلى صدري . . صدري المكبوس بثقل السقوط المتسارع يخنق زوري . . يندلق لساني . .

. . دوم ، دب ، طق طوق . .

يتلقى رأسي الضربة الكونكريتية الساحقة . .

يتناثر هلام أبيض دام من القحف المهشم . .

أرفع بصري عن أسفل الشرفة على عجل ، وألفّ برنص الحمام ، المنفلت من الفزع ، على جسدي من جديد . . أغلق باب الشرفة وراءي بعد دخولي الصالة .

. . ينزلق جسدي فوق أحد المقاعد الجلدية الوثيرة . . يضيع بصري في عتمة الممر الضيق الصغير ما بين الصالة والمطبخ المؤدي إلى المدخل ، أظل أحدق في الظلمة دون أن أرى شيئا أو أُلقي من مخيلتي عليها شيئا .

. . يبدو أنني أفقت من إغفاءة قصيرة على صوت مفتاح يدور

في باب الصالة . . أقف منتصبا . . ينزلق حزام روب الحمام . . تتباعد حاشيتاه ، كاشفة مقطعاً طولياً من صدري وبطني وفخذي وما بينهما .

. . ينتصب عضوي من توتر الموقف . .

يدخل العقيد ويرفع قبعته العسكرية المجللة بنديف الثلج . . يضربها بكفه الأخرى فتتساقط نتف الثلج ببطء ، وتتطاير مع ضوء الممر والصالة التي أدار مفتاح إنارتها . . يعلق بصري بالنديف الثلجي المتطاير من قبعته .

. . يزيح العقيد معطفه عن كتفيه . . أتابع حركة المعطف . . أرى المسدس الضخم في قرابه معلقا بإحكام إلى الجهة اليسرى من الحزام الجلدي العريض الأسود . .

يرفع العقيد بصره ببطء . . أرفع بصري إلى مستوى بصره .

. . يقف مبهوتاً بهلع واستغراب ، يحملق في عضوي المنتصب . . يتهدل فكه .

. . أرفع بصري إلى مستوى وجهه الممدود بانحناءة وتطاول رقبته إلى الأمام . . تتطاول رقبتي وتنحني لتلتقي نظراتنا في مستوى واحد . . تصطدم ببعضها . . يحتقن وجه العقيد . . يطبق فكيه بإحكام وزمجرة . . أسمع صرير أسنانه يجرش بعضها بعضا .

يتقدم خطوة داخل الصالة ، ويلتف على نفسه بنصف جسده العلوي بحزم وبحركة مدربة مدروسة ، واضعا يده على المسدس الذي أخرجه من حافظته بسرعةِ رماةِ رعاة البقر التكساسيين .

. . إنها إرادة الحياة الكامنة الواعية المتحفزة .
يا لإرادة البقاء!
. . بنفس سرعة إخراجه للمسدس الضخم نفسها ؛ كنت قد نضوتُ روب الحمام . . كوّرته في يدي . . طارت هذه الكتلة الفوضوية من الرداء تجاه وجهه .
. . في اللحظة التي كان العقيد يتقي فيها اصطدام كتلة البرنص المكوّر بوجهه ، انحرفتْ يده التي تحمل السلاح عن هدفها .
. . الطلقة ، التي ظل صداها المعدني يدوي في أذنيّ ، هشمت مصباح الزاوية العمودي .
بدفعة يائسة مستميتة من كتفي الأيمن ألقي به على الأرض ، وأنا أقفز وأعدو مارا إلى جواره صوب الباب . . سقط في مدخل المطبخ .
. . ترامى إليّ صوت آنية تتهشم . .
أصبحتُ أواجه الباب . . استعصي عليّ رتاجه وأنا أحاول فتحه بارتباك وعجلة . .
- عليك اللعنة! . . جورت ببري! . . تي نخال! . . أثرّتْ الشتائم أخيرا على الرتاج فانفتح الباب .
عاريا انطلقت كالعاصفة المزمجرة إلى الموزع أمام الشقق الثلاث . .
- يا للهول . . يا إلهي . . تي شتو غوسبيدي بوجي موي!!
كانت صرخة فزع تلك التي أطلقتها ساكنة الشقة المجاورة

الواقفة على عتبة دارها .
. . قفزتُ كل الدرجات الستْ الأولى ليرتجّ جسدي بعنف من أثر الارتطام فوق مربع التفاف السلم .
. . أمسكت بحركة لا واعية بعضوي وخصيتيّ التي اهتزت بعنف حتى كادت أن تنخلع . .
لا أعلم كم من القفزات الكبيرة أكملت في انحداري كي أصل إلى باب العمارة .
عند باب العمارة التفتُّ خلفي . . السلّم ذو الإنارة الخافتة خال تماما . . لا صوت لأقدام تتسارع هابطة على درجاته . . لا صوتٌ أصلا غير الوجيب الذي يضج به صدري كقطار متسارع على سكة قديمة صدئة . .
فتحت الباب وخرجت .
. . كان نديف الثلج دافئا وهو ينزل برحمة وأناة فوق جسدي العاري .
أفقت من إغفاءتي القصيرة فوق المقعد الجلدي . . نهضتُ وتمصّرتُ قبل ان اعود بهدوء إلى غرفة النوم . .
الساعة المنضدية تشير إلى الخامسة والربع . .
كان ملاكي العاري الجميل على سكون جسده المرتخي نفسه فوق الملاءات الحريرية المورّدة . . وقفتُ عند رأس السرير . . ساحَ بصري ببطء في مساره المتعبد ، من أصابع القدم الوردية ، عبر كل الهضاب والوديان والأخاديد التي يرسمها الضوء الخافت ، إلى القمرين المشرفين من الربوتين اللتان تعلوان وتهبطان في

نَـفَـسٍ عطرٍ منغّـم ، إلى الوجـه الوادع بالرضى تحت مـوجـات لفائف الشعرً المنفرط .
ملتُ على وجـهـها طابعا قـبلة رقـيـقـة ، قـبل أن أسـتلقي إلى جانبها وأروح في إغفاءة عميقة .
حين فتحت عينيّ كـان ضيـاء صـباح شتـائي خجول قد عـبر نافذة الغرفة .
. . تابع بصري من جديد تاريخ حروب البشرية وأدواتها المعلقة فوقِ الحائط المواجه للضوء أمامي .
سمعت قرقعة صحون وأدوات معدنية قادمة من المطبخ . .
التفت برأسي إلى يميني . . كانت لا تزال غارقة في إغفاءتها الوادعـة ، جـسـدها اللدن المكتنز شـعّـت أنواره وأخـذت روابيـه تلصف في نور سحري . . سِـحتُ مرة أخرى في مـعـالم الكون الذي أكتشفهُ بانبهار مرة أخرى .
. . وقعُ خطوات تقـتـرب من الصـالة ، يعـود وقعُ الأقـدام مـرة أخرى ويخفت عند فسحة الطعام في المطبخ . . لحظة لا تطول ويعود صوت الأقدام يتصاعد مقتربا من الصالة .
احتضنتها قاصدا إيقاظها بلطف .
فتحتْ عينيها وقالت بصوت مرح :
– تي ميلي موي! . . طبعتْ قبلة رخية على شفتيّ . . صباح الخير يا حبيبي .
انفـتح باب غـرفة النوم بـهدوء . . أطل وجـه الصـورة المؤطرة دون قبعته العسكرية . . برز جزء من قميصه العسكري وهو يمد رأسه

وصدره مبتسما ابتسامة رقيقة مصوبة إلى وجه ملاكي العاري المسترخي . . إلى زوجته .

. . تتمصّر هي بغنج قبل أن ترد ابتسامته بجذل :

- تي ميلي موي! ، صباح الخير يا حبيبي ، لقد حضرت باكرا هذه المرة . . آسفة كنتُ منهكة ليلة أمس .

- لم أرد إزعاجكما ، انتظرتُ حتى تصحوان . . كل شيء جاهز للإفطار . أجاب العقيد من عتبة الباب .

قفزتْ حسنائي من السرير بنشاط ومرح لتقف أمامه بعريها لحظة وهي تبتسم . . مشت بخدر إليه . . أحاطتْ رقبته بذراعيها . . مرّغت وجهها كقطة نعسة بوجهه . . نظرتْ بإمعان ووله إلى عينيه . .

- ممم مه! طبعتْ قبلة شديدة مفاجئة على شفتيه . . تناولتْ روبها الحريري المكوّر عند حافة السرير وارتدته وأعادتْ تعلقها برقبته .

. . أدارتْ وجهها إلى السرير صوبي ، وابتسمت قبل أن تتجه معه إلى المطبخ .

بقيت مسترخيا أتأمل بقع الضوء المنعكسة من القطع الفولاذية المعلقة على الجدار ، والمتراقصة على السقف الذي تاه فيه بصري . . أسلحة البشرية في تأريخ معاركها الشرسة المسعورة . . توسعت ابتسامتي الباهته شيئا فشيئا ، لتنفرج عن أخرى عريضة ، ثم لتتحول إلى ضحكة خفيفة مرحة .

حين توجهت إلى الصالة لأرتدي ملابسي الملقاة بإهمال على

المقاعد ، تناهتْ إلى أسماعي أصوات حديث هادىء مصحوب بكركرات ضحك خفيفة آتية من المطبخ تعقبها لحظات صمت .

. . لابد أنه يحتضنها الآن بحرارة!

– هل أعد لك بيضا مقليا مع النقانق ؟

سألني إيفان وهو ينظر اليّ مبتسماً ، ناهضاً من على كرسيه بالقرب من زوجته .

– هذا لطف كبير منك . . حبذا لو كان بيضا مع الطماطم المقلية . . نصف قلي رجاءً !

أمسكتْ هي بكفي ورفعتها ببطء . . قلبتها وقبلت راحتها .

ملتُ عليها وطبعتُ قبلة رقيقة فوق خدها .

أثناء تناولنا الإفطار كان إيفان هو من يصب الشاي في الاقداح ، هو من يضيف الحليب ، هو من يقدم السكر ، هو من يحمص شرائح الخبز . . هو من يدير دفة الحديث .

– هل تعلم يا صاحبي أني رغم جولات عملي العديدة لبلدان مختلفة ، لم تسنح لي فرصة أن أحقق زيارات للبلدان العربية . . أن أشاهد بابل ، أن أجلس تحت أعمدة الجامع الكبير في القيروان ، أن أتمشى على كورنيش النيل في القاهرة وأنا آكل الذرة المشوية مثلما أراه في الأفلام المصرية . . أن أجلس في أروقة الأزهر ، أن أرفع بصري عاليا مع منائر جامع ابن طولون .

. . وخان الخليلي يا صديقي! . . يا لخان الخليلي! ، كم سمعتُ عنه من اصدقاء زاروه وجلبوا معهم غرائب التحف المصرية . .

هل تعلم أن أغلى أمنية لي هو أن أضيف إلى مجموعتي درعاً وسيفاً من أسلحة المماليك .

. . ولكن للأسف لا رحلة متوقعة لي إلى مصر ، فقد ساءت العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبينهم في الفترة الأخيرة للأسف .

– يا للصدفة العجيبة يا إيفان! إني مسافر في رحلة قصيرة بعد أسبوعين إلى القاهرة . . الأمكنة التي تحدثت عنها هناك هي أماكني المحببة . . العتبة والأزهر والأزقة المحيطة به ، وأسواق خان الخليلي ومقاهيه هي التي أقضي فيها معظم وقتي عندما أزور القاهرة . عقّبتُ أنا على كلامه .

كانت تجلس بيننا وهي تنصت باستمتاع ، . . روبها الحريري مندلع . . مساحات من حدائق جسدها تزهو وتنكشف . . ابتسامة سعادة غامرة على وجهها . . تمسك بكفينا بين حين ، وآخر وتهصرهما برقة .

. . أخالس النظر بين فقرة حديث وأخرى إلى الأجزاء باهرة الثراء الظاهرة من الثديين ، ثم ينزل بصري إلى فسحة النور حين تتراءى حواشي من الرابية الغضة بمرجها الزغبي الأشقر .

– سأبحثُ في زوايا القاهرة القديمة عما أردت يا إيفان!

كررت تاكيدي لإيفان وأنا أربت على كتفه بمودة صميمية .

لم أطل المكوث بعد الإفطار . . كنت أعرف أن عليه العودة إلى معسكره بعد خلوة شبقة أكيدة مع زوجته .

حين استأذنت بالانصراف ، وقبل وصولي إلى الباب ، أحاطت

عنقي بذراعيها .
. . أنزلتُ بصري لأرى للمرة الأخيرة ما بان بصعوبة بين حاشيتي الروب الحريري المندلع . . لحظة لم تطل ورفعتُ رأسي لتطبع على شفتيّ قبلة وألهة طويلة .
فتحتُ الباب وخرجت إلى المساحة المربعة بين الشقق .
. . خرجا ورائي متحاضنين إلى الفسحة .
– صباح الخير جارتنا العزيزة . . ألقيا بتحيتهما على الجارة التي كانت تقف مبتسمة على عتبة دارها .
أثناء هبوطي درجات السلم بشكل حالم متأنٍ ، التفتُ رافعا رأسي لأجدهما يرمقان نزولي بابتسامة ، وكلٍ يحيط خصر الآخر بذراعه .
حين قطعت مسافة غير قليلة من السلم ، سمعت صوت إيفان ورائي :
– لا تنس يا صديق ما وعدتني به! . . درع المماليك والسيف!!

حبتا الكرز

سمعَ صوت (هدّية) بائعة الحليب يتشكى ، مرة بغضب ، وإخرى برجاء ، وثالثة بولولة ، وهي تتحدث إلى إبيه من وراء عتبة الدار المشرع بابها . .

هرب بفزع وعجلة إلى غرفة قصية في الدور العلوي ، واختبأ خلف أكداس الفرش المطوي المرصوص فوق بعضه . .

عمّ صمت مريب قبل أن يتناهى صوت أبيه الغاضب ، مترشحا من وراء الأغطية وهو يناديه بغضب . .

تكرر النداء بنبرات غضب مختلفة . . أصبح النداء مختلطا بنكهة سخرية . . شابَ صوت الغضب المفتعل أخيرا نكهة مرح ساخر . .

خفّ الارتجاف والتقعي في الزاوية المظلمة الضيقة .

- ما كفاك لعبة العريس والعروس مع بنت الجيران قبل أيام . . طلعتْ علينا ها المرة بالحرشة ويّ بنت أم الحليب!

وصل إلى سمعه التعليق الأخير المشوب بالنكتة ، مع التهديد الذي خسر نبرة الغضب الجاد . .

أسند ظهره إلى حائط مخبئه المعتم ، ومدّ ساقيه باسترخاء وأطلق آهة ارتياح . .

«حبتا الكرز كانتا جميلتين!»
أفاق قبل الآخرين على نقرات مطرقة الباب النحاسية الثقيلة . .
كان رذاذ المطر يبلل وجهه وهو يعبر باحة الدار المكشوفة ، ويغسل معه آخر لزوجة النعاس العالقة فوق عينيه .
« . . إنها (هدية) بائعة الحليب لا شك ، بعباءتها المغبرّة القصيرة المشرشرة ، ووجهها الضامر الشاحب بعينه الحولاء اليمنى . .»
فتح الباب بتثاقل . .
صبية ممشوقة بثوب عتيق مبلول ، تقف وراء عتبة الباب ممسكة بقنينة الحليب . . هي أخت هدية (أم الحليب) . . كانت تكبره ببضع سنوات .
تطلع بابتسامة إلى وجهها الجميل المغسول بمطر الصباح .
. . حدّق ملياً بالعينين الشهلاوتين الوسيعتين ، وبخصلة الشعر الندية الملتصقة بالجبهة البيضاء . . . . خصل أخرى انسكبت فوق الكتفين .
. . بان أعلى النحر من فتحة الثوب المبلول الملتصق بالجسد .
. . تخايلت استدارتان صغيرتان فوق الصدر الناحل . . شفّ فوقهما لون حبتي الكرز الناطتين بتحدٍ عبر بقع البلل من الثوب العتيق ، حبتان قرمزيتان تتخايلان بإصرار ووضوح ، أكثر من بقية أجزاء الجسد عبر ضبابة الثوب المبلول .
. . حدّق برهة مأخوذا .

. . اختفى كل ما حول حبتي الكرز من الثوب والجسد الذي يحتويه .

. . اختفتْ معالم الزقاق .

. . حبتا الكرز وحدهما تسبحان في الفضاء الهلامي المترامي . .

امتدت أصابع كفه اليمنى إلى إحدى الحبتين ، مستكشفة متلمسة بتعجب وانبهار . .

علتْ صرخة فزع .

. . تناهى صوت زجاج قنينة الحليب المتهشمة فوق أرضية الزقاق .

. . أفاق من متاهته في ضباب البستان المثمر . .

كانت الصبية الصغيرة قد قفزت خطوة كبيرة إلى الخلف من عتبة الباب المفتوح ، وأخذت تنظر مشدوهة بحدقتين مفزوعتين وسيعتين إلى الصبي الصغير أمامها .

فانتازيـــا

«تي جيستوكي ، بيز سرديجني . .»
«أيها القاسي الذي لا قلب له
. . وصلتني رسالتك من القاهرة ، بعد بطاقات من محطات أوربية ، وكنت أحط معك أينما حللت ، وفي كل بقعة كنت أنتظر اللحاق بك . . أنتظر وأوشك أن أستعد لرزم حقائبي ، وتأتيني كلمات عاجلة قصيرة ببطاقات مصوّرة من مدن خيالية مثيرة ، وأنتظر محطاتك الواحدة تلو الأخرى ، لعلك تلقي رحالك مستقرا في إحداها ، فأغادر حينها موسكو على عجل ، ومع الصبر وسهر الليالي كانت الأحلام تنتقل وتتبدل ، ثم تتبعثر .»
«وصلتَ أخيرا إلى القاهرة . . انتعشت آمالي وأنت تخبرني أنك عزمت على الاستقرار والعمل فيها ، وأنك قابلت شخصية متنفذة مرموقة برسالة توصية خاصة جدا ، وأنها إلا مسألة أيام ويصدر أمر تعيينك طبيبا مقيما في مستشفى (الكسر الأ يني) وأنك تبحث عن سكن مناسب . .
بدأتُ بتوديع صديقاتي أولا ، ثم زميلاتي العارضات في مؤسسة تصميم الأزياء ، بل لقد أعطيتهم وعداً بأنني لن أتأخر

طويلا في دعوتهم إلى رحلة في بلاد الفراعنة الأسطورية . .»
. . كنت أتسلق معك صخور خوفو ، وحين نصل إلى ذروة الهرم العظيم ، أمسك بيدك وأرفعها عاليا ، وأصرخ «بروشاي موسكوفا . . زراسفوي نوفي جيزن . . وداعا يا موسكو . . مرحبا بالحياة الجديدة» .
« . . كم من الجمال ركبت معك ونحن نتنقل بين قرى الريف المصري ، يظللنا سعف النخيل المتسامق ، وأشجار الفاكهة الغريبة ، وأنت تمد يدك بين الحين والحين لتقطف لي ، أثناء تجوالنا المتأرجح ، بلحا مصريا أحمر ، وجوافة ومانجة عسلية الطعم ذهبية الألوان ، وكان لعابي يسيل وأنا أتخيل كل هذه اللذائذ التي لم أذقها ، والتي أرى صورها في البطاقات السياحية التي ترسلها إليّ . . وحين يسرع البعير في عدوه ، كنت تلفني بطارف عباءتك البدوية ، وتحيطني من الخلف بذراعيك ، وتطبع قبلة على رقبتي مخففا فزعي . .» .
« . . في الليل ، على صفحة النيل المتلامعة بأضواء العاصمة العريقة ، كنا نتيه على إحدى الحمامات البيضاء السابحة في النهر الخالد بجناح شراعها الهفاف ، وأنت تضع رأسك في حضني فأداعب شعرك الجعد الفاحم . . والنوتي . . ما أروع النوتي وهو ينتصب بجلابيته الفارهة الخفاقة كإله فرعوني أسمر . . يرفع صوته كما في معبد فرعوني ، بموالات طويلة حزينة غامضة .
. . كم من الأفلام المصرية صحبتني إليها هنا ، حين كانت

تلك الأفلام تعرض في مهرجانات موسكو السينمائية .» .

« . . كنتُ أدور معك بالبدلة الفرعونية المقصّبة المذهبّة ، وبتاج (حاتسبوت) الذهبي ذي المرآة المدورة بين أعمدة الكرنك الضخمة ، نتسلل إلى معابده المليئة بالألغاز ، والمومياءات ، والتوابيت المرمرية السوداء ، والصناديق الذهبية المليئة بالياقوت والماس واللؤلؤ وحجر الاسكندر . . نسير في الأروقة المنارة بالقناديل والمشاعل ، وحين ألتقي بتمثال (حورس) مهيباً في ضوء المعبد الخافت ، أمد له لساني متحدية بسخرية مشاكسة . وحين نصل عند منصة الملكة الحسناء الرخامية (جَد حُورْ) أقف أمامها بحب وخشوع ، وأغني إحدى (آريات) أوبرا عايدة .

. . نعم كنت تسخر من محاولاتي الغنائية الكثيرة في تقليد الادوار كلما عدنا من مسرح(البولشوي) أو مسرح (أربات) الغنائي .

آه لو تعلم كم تصفحت من الكتب المصوّرة لأشاهد الملكات الفرعونيات الجميلات ، وحليهن التي تبعث ببريقها وزخرفها وألوانها الأحلام ، وأقرأ الأقاصيص عن مومياءاتهم ذات الرهبة والألغاز واللعنات .

. . ساعات طوالاً كنت أسرح بخيالي في مكتبة لينين . . أتبعك وأنا أقلب البومات الصوّر الكبيرة .»

«أنا حمقاء وربما حمقاؤك الصغيرة كما كنت تدعوني . .

. . نعم كنت أضحك جذلا وتيها حين تدعوني بجميلتك

الصغيرة الحمقاء . . (دورا)!!

(دورا) حمقاء نعم دورا . . (دورا) وألف دورا ؛ إذ لم أُصغِ إلى تحذير زوجتك السابقة (لودميلا) من أنك تلهو بي ، تلهو بطفلة السادسة عشرة . . تعبث بها في ضياعك الأبدي ، وأنك لن تتزوج هنا في موسكو ثانية .

. . يا لهُ من موقف مُربك مُنهك وهي تقتحم علينا شبه خلوتنا العاطفية ، في نفس عش الزوجية السابق نفسه ، بعد أشهر من طلاقكما .

. . يا إلهي إنني لن أنسى أبدا ذلك الوجه الجميل وهو ينقلب إلى كتلة قرمزية محتقنة حين تتفاجأ بوجودي ، فتقف جامدة وكأن لعنة الموقف أحالها إلى تمثال حجريٍّ .

. . حين تدعوها بهدوء إلى قدح شاي ، تجلس معنا مطرقة صامتة فترة طويلة ، ثم ترفع رأسها بعدها لتواجهني بنظرة وابتسامةِ إشفاق وسخرية .

« تي دورا . . مالينكايا دورا . . أنت حمقاء . . صغيرة حمقاء . . إنه يلهو بك! . . » . .

«تهاوت الأهرامات ومعابد الكرنك وأعمدته الجبارة ، وضاعت الصحاري ، والجِمال ، والنيل ، وكل اشرعة القوارب البيضاء الخافقة للريح . . كل ذلك ضاع ، حين وصلتني رسالتك القصيرة التالية وأنت تعلن فيها مللك من الانتظار ، وأنك حجزتَ على عبّارة رخيصة ستنقلك من أسوان في أعالي صعيد مصر فوق طمي النيل ، في موسم فيضانه عبر النوبة

وصولا إلى أطراف السودان الشمالية .

. . تتوالى رسائلك القصيرة مع الصور والبطاقات السياحية المثيرة . . تلال النوبة على الضفاف ، ببيوتها الطينية ذات المعمار المميز والنقوش الفرعونية الفريدة ، معبد أبو سمبل والأجزاء المقطّعة من تماثيله الهائلة الأحجام ، الملقاة على ضفة النيل المتصاعد بفعل السد العالي ، والمهيأة لرفعها لموقعها الجديد ، تفاصيل رحلتك المثيرة في البر السوداني إلى الخرطوم مع عدد من البطاقات المصوّرة للفيلة والأسود في الجنوب . .

ومع رسائل خاصة جدا - حسب قولك - إلى أناس في قمة النفوذ ، تخبرني أن بينك وبين أمر تعيينك مسألة أيام لا غير ، وأنك قد تُرسَل إلى مدينة (واو) في الجنوب ، حيث القبائل البدائية وحرب العصابات المستعرة هناك .

أيها القاسي الذي لا خيط للرحمة في قلبه!! آه لو تدرك تلك الليالي المضنية بوهج الأحلام وحريق الشوق .

أرق دائم ممضّ . . لكني لا أكذبك القول ، اني كنت أتحرّق انتظاراً لليل ، وحلول ساعة الانسلال إلى الفراش ، عندها تبدأ لقطات من مشاهد مغامراتي معك تعبر أمام عينيّ ، كما عبر شاشة سينمائية عريضة .

« . . كنا أنا وإياك ، ننتقل على الفيلة بين الأدغال الكثيفة ، وعلى حُمر الوحش الملوّنة في حقول السفانا ، وعلى عربات تجرها الجواميس الضخمة بين قرى ذات بيوت وأكواخ مخروطية . .

كنتَ أنت تلبس صدريتك الطبية البيضاء ، وسمّاعة فحصك تتدلى من على رقبتك ، ومعداتك الجراحية وأدوات فحصك الأخرى في حقيبتك الأسطوانية السوداء إلى جانبك ، وأنا كنتُ ببنطالي الكتاني الأبيض الهفهاف ، وقميصي الحريري ، ومنديل شعري الملفوف والمعقوص إلى الأعلى ، مساعدتك الملازمة لك في كل وقت ومكان .

. . دوما إلى جانبك . . أعدُّ لك المشارط والسكاكين والملاقط حين تتهيأ لإجراء عملية على شاب ضخم أسود ، نهش نمر جائع ذراعه ، أو وأنت منغمس تماما في استخراج حربة من صدر محارب كان قد أُصيب بعد اقتتال مع إحدى القبائل من أكلة لحوم البشر ، أمسح عن وجهك العرق ، وأهفُّ بنسمات عذبة على وجهك بمروحة الخوص التي أحملها معي دوما ، وأناولك المشارط والملاقط وسكاكين البتر . .

. . أخرجُ فرحةً ، بينما أنت تُبدل ملابسك وتستريح برهة ، لأُخبر أهل المصاب خارج الكوخ ، بأن العملية قد نجحت . . . تنهال عليّ القبلات ، ويبدأ قرع الطبول واجد نفسي وقد أصبحتُ وسط حلقة الراقصين شبه العراة وهم يدورون حولي .

. . وحين نستعد لحفل زواجنا هناك ، نُبقي على خيارين منها فقط ، فإما أن نقيم الأفراح على طريقة أهل الخرطوم ، أسبوعا كاملا يُفتح فيه البيت للضيوف ليل نهار ، وتقام حفلات الغناء والرقص حتى منتصف الليل في باحة البيت . . . في الصباح حيث تُعدُّ مائدة إفطار خاصة لأعز الأصدقاء

والأقارب ، تطلب مني أن أرقص أمام الصفوة الخاصة جدا ، تشريفاً وإكراماً لهم . . نعم «ترقيص العروس في صباحيتها» .

. . كنتُ جميلة ومشرّفة لك ولضيوفك في مظهري الخجول المحتشم وأنا أرقص . . كانت تهتز فوق ملابسي الطويلة الفضفاضة تلك الحليّ الجميلة المهداة منك ومن أقرب الناس إليك .

. . تتناثر حول أقدامي المحنّاة أوراق النقد الضخمة والليرات الذهبية ، نقوطاً من الحاضرين الهازجين والمصفقين بأيديهم نغمات سودانية فولكلورية .

. . كم ظللتُ أتدرب كل ليلة على تلك الرقصة الجميلة المحتشمة قبل أن آوي إلى فراشي .

. . بعد وصول رسالتك تعلمت من فاطمة الكثير الكثير عن هذا البلد الكريم المضياف الذي ستدعوني إليه . . أنت لا شك تذكر زميلتك السودانية في القسم الداخلي فاطمة ، . . كم كانت فرِحةً لأجلي وهي تحدثني بإسهاب عن شمال السودان وجنوبه ، عن العادات والتقاليد ، وعن طقوس الزواج في المناطق المختلفة منه .

. . عني شخصيا كنت أميل إلى حفلة زفافنا حين نحط رحالنا في أطراف (واو) ، حيث ستمارس مهماتك الطبية هناك . . هناك حيث الغابة الكثيفة ، وقرع الطبول في الأماسي ، والرقص الجماعي على أضواء النيران في ليل الغابة الغامض .

. . في ليلة عرسنا تلك ، سيجتمع الحشد في ضوء المشاعل ،

وأكوام النيران حول ساحة الرقص .

. . في فسحة معدّة من الغابة الكثيفة سيجتمعون ، بأحلى وأغلى أزيائهم التي تغطي أجزاء مما حول الورك من نصفهم السفلي ، والنصف الآخر منه تتهدل عليه القلائد والتمائم مع أطواق معدنية عريضة مزخرفة حول العنق .

. . أخرج أنا من كوخ العروس المزيّن بأوراد الأوركيد ، وعصافير الجنة ، والماغنوليا والقدَح الناري .

. . يبدء قرع الطبول .

. . تتعالى همهمة غناء الحشد .

. . قلائد وحلي وتمائم تهتز على صدري العاري ونهديَّ النافرين ، ومن طوق حول الخصر ، تتدلى أحزمة جلدية حتى أسفل الوركين بقليل .

. . أبدأ بالاهتزاز والتمايل بتراخٍ ودلال .

. . تخرج أنت من الطرف المعاكس ، ما على جسدك ليس بأكثر مما عليّ .

. . يتصاعد قرع الطبول ويعلو الغناء من الحلقة المحيطة بنا .

. . تتسارع أصوات الطبول والهازجين ، وتتسارع معها خطانا وتمايلنا .

. . تبدء أنت بالقفزو الهمهمة دائراً حولي كاللهب المتراقص .

. . يَسخنُ الجسد . . تَسخن العواطف . . يطفحُ الشبق . . يتيهُ الوعي . .

. . بحركة عنيفة مفاجئة تختطف بإحدى يديك أحد الأحزمة

الجلدية المدلاّة من حول وركي . . تلتف حول نفسك برشاقة فينقطع السير الجلدي . . ترفعه بيدك قافزاً مفاخرا بفرح منفعل . . يهتف الجميع استحسانا . . تمسك بالآخر . .

. . مع تزايد القرع والهزيج المتسارع ، تَقطعُ سيوراً عديدة أخرى .

. . تتكشّف مكامن أنوثتي ، وتتلامع من وراء بريق الزيوت وعطور الغابة اللزجة فوقها .

. . يزداد هياج حلقة الهازجين الدابكين عنفاً .

. . يزداد هياجك الشبقي . . تقطع ما تبقى من السيور الجلدية بحركات تزداد رشاقة ورجولة مع تزايد قرع الطبول .

. . يغيب وعيي في متاهات بركانية ملوّنة .

. . جسدي العاري المعرّق الفواح يتلاشى كأثير شفاف .

. . يتناهى إلى سمعي هتافٌ وأهازيجُ وطبولٌ وهلاهلْ .

. . نعم ها أنت تحملني الآن وتلقيني على كتفك .

. . تدور بي عارضاً جسدي العاري دورة كاملة أمام الحشد ، قبل أن تتوجه بي بقفزات منغّمة إلى كوخك .

. . ها أنت تعود لتخبرني أيها الظالم برسالة قصيرة! ، أنك ضقت ذرعاً بالسودان ، وأنك مغادر كل ذلك العالم المليء بالمغامرات والغرائب . .

أبكي طويلاً .

إنني لن أستطيع بعد الآن أن أسمع قرع الطبول في الليل وأن أرقص رقصة الأحزمة الجلدية أو رقصة (إبحث عن الإبرة في

الغابة . . حيث الراقصون العراة يختفون بعد الرقصة أزواجا بحثاً عن الإبرة الضائعة في الغابة) .

«تنتعش آمالي شيئا فشيئا مجدداً حين تعود من مجاهل الغابات إلى بلد الحضارة والجمال والبوهيمية . . إلى جيكوسلوفاكيا .

. . البطاقات الأنيقة لبراغ الذهبية بأبراجها الألف ، تخبرني أنك تعمل في مستشفى (ملادا بولسلاف) ، إحدى ضواحي العاصمة . . . حين أُخبر زميلاتي في العمل يهنئنني بأني قد عدت من المجاهل الخطرة إلى بلد الحضارة ، واني ربما قد نجوت من نهشة تمساح أو اختطاف غوريلا ، أو ابتلاع أفعى (البوا بوا) . . بوا بوا!! يا للهول! .

. . نعم ، فكرتُ قليلا! . . ربما كانو على حق في مواساتهم لي ، كم من مرت أخبرتك عن أن جسدي وروحي تقشعران حتى من سماع اسم أية أفعى . فكيف بـ (بوا بوا) ، حمدا لله لقد نجوت حقا!! .

بدأتُ بالذهاب إلى المركز الثقافي الجيكي وقضاء ساعة أو ساعتين يوميا بعد إنهاء عملي . . لم أكتف بالألبومات المصورة ومجاميع البروشيرات السياحية ، بل عقدتُ صداقة طيبة مع إحدى الموظفات الجيكيات هناك ، وبدأت في معرفة تفاصيل إضاقية كثيرة .

. . كانت متعاطفةً معي بعد أن أخبرتها بأن خطيبي في انتظاري هناك . . ألسنا نحن في عداد المخطوبين ؟ لعلك لم

تنس ذلك أيضاً ، وحين علمت باسم المدينة التي تعمل فيها أكدّتْ لي أنني سأتمكن من الحصول وبكل سهولة على عمل في معمل (سكودا) للسيارات ، أو شركة (باتا) الشهيرة للاحذية . . »

« . . كنت أخرج من تحت هياكل السيارات وأضع مفكات الصواميل الفولاذية الضخمة جانباً ، وأمسح عن وجهي الشحوم والسخام بمنديل ضخم ، حين تنطلق صفارة إشارة انتهاء النوبة .

. . أنظر قليلا إلى أظافري الطويلة الأنيقة وأُطلق تنهيدة ارتياح أنها لم تنكسر أو تتخدش ، وأنطلق فرِحةً لإبدال ملابس العمل المدهّنة . »

« . . أو أنني في (باتا) أنزع صدرية الجلد الثقيلة ، وأنفض مجاميع المسامير الصغيرة ، وأزيح بقايا القطع الجلدية المقطعة جانبا ، وأدوس وأنا أركض فوق أكوام الأحذية الجديدة ، لأسارع إلى غرفتك في المستشفى كي أكون في انتظارك هناك عند المساء . ومن هناك كنا ننطلق إلى براغ .

. . يا لروعة أماسي براغ!

. . نبدأ بـ(أوفليكو) .

. . أجلس في الزاوية نفسها التي جلست فيها (جوزفين) . . تمسك أنت بيدي كما فعل نابليون قبل مئة وسبعين عاما ، وتخبرني بأن ما إن يحل نصر معركة أوسترليتز صبيحة اليوم التالي ، حتى تعلن للملأ خبر زواجنا . . لست أعني زواج

نابليـون من جـوزفين ، بل زواجك مني أخـيـراً . . نعم ، ويا لسعادتي أخيرا . .

. . وتُجلبُ أقداح البيرة السوداء وخبز الثوم المقدد المحمّص .

. . نخرج بعد ساعتين نستنشق عطر البيرة يضمّخ أنسام أماسي براغ .

. . نجلس في مقهى سلافيا ، المطل على النهر الموشّح بأحزمة الضباب . . ومن خلال كوى الضباب السابح تتلامع ، تتكسر ، تشحب ، وتخبو فوق صفحة النهر فوانيس المدينة القديمة السابحة في عتمة السماء . .

. . ننتظر في سلافيا حتى موعد الحفلة الموسيقية لـ(سميتانا) و(دفورجاك) في دار الموسيقى الوطنية المجاورة . ، وحين نخرج قرب منتصف الليل تحتضنني ونحن نسير باسترخاء حالم على رصيف النهر .

. . حين نصل إلى جسر كارلوف ، وعند منتصفه ، نتكىءعلى سياجه الحجري قرب أحد تماثيله العديدة ، ونطل على النهر المتلامع بنجوم وأقمار (الهاجاني) المنسرحة من تلال القرون العتيقة المجاورة والسابحة في النهر .

. . ترنّ في سمعي آنذاك مقطوعة (فالتافا) الموسيقية من جديد .

« . . نصعد (الهاجاني) ، نعبر أزقته الحجرية بأضواء فوانيسها التي عمّرت مئات السنين ، وما زالت تلقي بنور عصور هرِمت وما فتئت تبعث أريج الشباب والحياة في السابحين في ظلالها .

حين نصل في مرتقانا لقمة النجوم والأقمار . . تعزف لنا الأبراج الذهبية نشيد دقاتها بألف نغم متنوع متداخل .

. . ترقص المدينة العريقة من تحتنا . . وحين يتلاشى صدى آخر ناقوس معلنا انتصاف الليل ، نسبح في قدسية الصمت .

. . أقفز فرَحاً وأصرخ (هورا ، هورا هورا) ، وأسحبك من سرحانك فوق القمة لأهبط بك إلى رحم براغ في باطن الأرض .

. . أنتقل بك من حانة إلى حانة ، ومن قبو مرقص إلى آخر . أرقص معك (الجارلستون) وال(هبي هبي) ، و(الجيرك) ، والـ(الصالصا) .

. . نخرج من أقبيتنا لنركض في الأزقة الحجرية ؛ نصغي لصدى ضحكاتنا وفوضى صرخاتنا المخمورة النشوى .

. . نطرق أبواب كنائس قوطية عتيقة لتفتح لنا كوى صغيرة في الأبواب الضخمة تسأل عن كلمة السر .

تصرّ البوابة الأثرية .

. . نسير طويلا منحدرين في ممرات عميقة منارة بالمشاعل ، مرصوفة جوانبها ببراميل الخمور المعتّقة المعثكلة بالغبار وأنسجة العناكب .

. . ينفتح علينا كهف وسيع ، موائده تنيرها شموع طويلة يجلس حولها عشاق حالمون ، تعزف لهم فرقة غجرية ألحاناً بوهيميا العريقة .

. . نعبّ خمراً وعشقاً ونغماً .

نخــرج من أعــمــاق العــصــور الوسطى ، نطل على المدينة الساهرة . .

أزواج عشاقها يمشون بخدر متتبعين ظلالهم من الفوانيس الشاخصة فوق الأزقة الحجرية .

. . نتبعُ ظلنا حتى يغيب في توهج الفجر .

. . نتراكضِ صاخبين .

أحتضنكَ سويعات في غرفتك قبل أن أُلبسك صدريتك البيضاء وأُعلق سماعة فحصك فوق رقبتك .

. . أنطلق عَجلةً إلى مصنعي ، وأدخل في بدلة العمل الزرقاء ، . . أحمل مفكات الصواميل الفولاذية الضخمة ، وأزحف تحت أحد هياكل السيارات ، وأبدأ يوم عمل جديد وأنا أدندن ألحاناً بوهيمية غجرية .»

« . . ها قد تبخرت أبراج المدينة الذهبية وماتت أنغام أجراس الساعات في منتصف الليل ، وتداعى جسر كارلوف ، وجفّ نهر (فالتافا) ، وبكى (سميتانا) معي حزنا عليه .

. . حزناً عليّ! . . حزناً عليك! .

تصلني منك بطاقة بريدية ببضع كلمات :

« سئمتُ الضياع . . عائد بعد أسابيع إلى أرض الوطن رغم المخاطر» .

أي وطن يا طفلاً أحمق . .

« . . عن رحلة العذابات في البحث عنك ، هناك ستأتيك مني رسائل أخرى في ملاحق خاصة ، لكن خلاصتها ونتيجتها ،

عودتي بك عجينةً من العظام والأسنان واللحم في علبة أنيقة

كتب عليها .»

« ثُــرِمَ وعُـلِّـبَ ببغداد »

«مـُعـدٌّ للتصدير الخاص»

«معفي من الكمارك والرسوم» .

الرسم عبر الهاتف

بحثتُ بين أوراقي طويلاً . .
ها قد وجدته أخيرا مكتوبا على حاشية إحدى الصفحات .
أدرتُ الأرقام بحماسة . . مع كل رقم أديره ، أحسُ بالانتعاض يزداد يزداد . . درجة فدرجة .
أكملتُ إدارة الأرقام . . سمعت صدى رنات الهاتف في الجانب الآخر من الخط . .
كان الانتعاض كاملا .
- «هل لديك مانع من قدومي إليكِ . . إليكِ إلييييكِ كِ . .»
يستمر صدى الكلمة يرن طويلا في اذني اللصيقة بسماعة الهاتف
« . . لتراجعي معي ملاحق كتبتها مؤخرا .»
بيضاء مكتنزه ، شعرها الفاحم ينهمر كالجداول على ظهرها وكتفيها . .
رداؤها الشفاف يُبرز خطوط فتنة الجسد الانسيابية اللينة .
. . في ممر شقتها ، خافت الضوء والمزدان باللوحات ، معظمها انطباعية . . أقف خلفها . . هي تتحدث معي عبر الهاتف . . .

ألتصق بحذر وأناة بظهرها شبه العاري . . أبدأ في شرح بعض الملاحظات عن خطوط وألوان اللوحة المائية الصغيرة المعلقة أمامها . .

– «هل تذكرين . . حين سحبتني راكضة إلى حقل (الكولزا) الذهبي ؟

. . النحل يطن حولنا . . نحلة تهيم في حقول الكولزا . . تمتصين الرحيق . . أنا شبه عارٍ . . تعرينني . . تتعرين» .

أنا أطفو . . تربة الحقلِ بحاريٍ . . تركبين الطوف مهتزاً . . الريح تعصفُ في الحقول . . ها أنتِ إعصارٌ شبقْ . . النحلُ يطنّ . . يطنُ يزنّ نّ نّ نُّ . . تمتص النحلةُ الرحيقْ . . وأنا وأننننننا موجةٌ في الهوى . . موجةٌ في الرياحْ . .

. . موجةٌ في الهوا .

زَبَدٌ قد أهَلْ . .

زَبَدٌ قد طغى .

تضحكين وتلفين على رقبتي سلك سماعة الهاتف . . تلصقيني بك . . صدى صوتك يغني «كل الحقولِ تزهرُ وردا» . . «أجرّكَ خلفي إلى كل لونِ ! زهرة كلِ حقولي . . وأنا نحلةٌ تزنننُ . . رحيقك أبغي»

– «حقول خضراء . . بحيرة يسبح فيها النور . . تسحبينني حيث الخضرة والنور . . أبدأ بالتعري . . تعرينني . تتعرين . أرسمك سمكة طازجة . . سمكة بأرداف سمينة . . للحوريات أرداف سمينة . . حورياتي بأرداف سمينة تسبح في خضرة الحقل» .

. . تمسك بسماعة التلفون بيد وتساعدني بالأخرى لنعلق اللوحة الخضراء في ممر شقتها .
أستمر . . تستمر في حديثها المرح معي عبر الهاتف . .
يزداد التصاقي . . دفءٌ يسري
يملأ ردفيها حوضي .
يغرق وجهي بغديرِ الشعرِ المنسرحِ . .
أسبحُ في الغديرْ . .
عبيرُها فوّاحْ! .
يلتهب «المتوتر» بنار دافقة أحسها تلفح فخذّي وردفيها .
– «ماذا لو رسمتك عارية من جديد ؟ مواصلا حديثي معها عبر الهاتف بهدوء . .
. . أجعل جسدك نصفين ،
نصف أزرق العتمة . . عميق كمحيط ،
نصف وردي زاهٍ . . يعلو ربوةَ أزهارِ ،
خط منصّف النورِ والعتمة ، يزحف من أعلى الجبهة ، فالأنف ، فالشفتين . .
الذقن والرقبة وما بين النهدينْ . .
يشقُّ غورَ السرّةْ ،
يقطع هلالَ الظلِّ الباهتِ ،
يعلو جبلَ الزهرةْ . .
ينسابُ أخدودا . .
. . ترتفع عاليا الهضبة الوردية اليمنى ، وتغور العاتمة اليسرى

مع أخدودها المنصف إلى أعمق الأعماق . .
أوج وحضيض .
الجذل والعذاب . . أوج وحضيض .
. . الجنة والجحيم أوج وحضيض!
نحن معا أوج وحضيض
أتأمل لوحتي التي أرسمها بالزيت بهوس على لوح كتّاني . .
أتلّمس بأصابع كفي اليمنى كتلها الزيتية البارزة . .
أتلمس ردفيها . . شبق الجحيم!
«هل آتيك عبر سهول الجنة ؟ . . . . ؟»
أواصل حديثي معها عبر الهاتف . .
- «استديري قليلا ، قليلا إلى اليسار ، كي يمر خط الظل في الوسط . . نعم بين الحقلين المعشبين . . قليلاً رجاءً . . نعم ، نعم نعم!! . . هكذا . . هاااااا»
كككذا . . متعٌ كلُّ الألوانِ .
التصاقي يزيد
أواصل حديثي . .
- «من ذا الذي يتحدث إليك من مطبخ الشقة ؟ . . »
أرى رجلا يغسل صحونا في المطبخ وهو يدندن بمرح . . أسمع كلمات غزله الرقيقة تصل إليها في الممر ذي الضوء الخافت ، حيث تقف معي مواصلة حديثها عبر الهاتف . .
- «من معكِ هناك ؟» أصرخ في سماعة الهاتف
أراها تبادله الابتسام . .

- «لا أحد!» ، يأتي صوتها إليّ برنين
أراهما يعدّان الصحون على مائدة الطعام . .
يضع يده على ردفيها شبه العاريين .
أواصل حديثي التلفوني معها . .
- «سألتك هل لديك وقت لمراجعة ما كتبت ؟ . . حتى وإن أجزاء منها . . ها ، هيا . . ما رأيك ؟»
تحركتْ وأبدلتْ مكان صحنين كان قد وضعها صاحبها فوق المائدة .
ألتصقُ اكثر بظهرها ونحن ننظر سوية إلى اللوحة التي أنجزتها الآن ، والتي علقناها في منتصف الممر قرب موقع الهاتف :
- ألا ترين أن أجمل ما في اللوحة هو كسر التناظر ما بين العتمة والنور في خطوط الجسد . .
ما بين الهضبة والوادي . . ما بين الأوج والحضيض . .
مثلث صغير اجتمعت فيه كل نقائض الكون . .
انظري! ها هنا ضاع خط الوسط المنصف!!
هنا ضاعت البشرية كلها! . . وهنا أصل الخليقة!
« . . سأحضر كي نراجع سويةً ما كتبتُ . . سأواصل الحضور إليكِ كل مساء . . سنبدل مواقع الكلمات ومواقع الهضبة والوادي . . سنجتاز خطوط الأوج والحضيض معا .»
هو يواصل ترتيب الصحون على مائدة لشخصين .
أسمع صوتها عبر الأسلاك يرنّ بسخرية لاذعة :
- «ولكني يا عزيزي أنا لا أفقه حتى ولا حرفين في الأدب ،

وفي الرسم لا أميّز أي اللونين أعتم من الآخر ، ولا أميّز بين قمة الجبل أو وهدة الوادي . . »

هناك . . ، حيث اللهب ، تخبو النار . .

ارتخاء وذلة وانكسار . .

وهج اللذة انطفأ

وأتى جحيم الزمهرير .

أرتجف عاريا

أرتجف ملتحفاً

دثار! . . دثار!

واصرخ هل من مغيث . . برد ، برد برد

. . برررررد .

. . الأغطية الصوفية تغطي رأسي وتكتم أنفاسي .

– لمَ لمْ أراجعها مع (حياةْ) ؟؟

تسمعينَ صدى فكرتي

تجيبينَ عبر الصدى :

– « . . حياةُ ماتت . . ماتت حياةْ!!

. . اغتالوها من أزمانٍ .

ماتتْ . . . . . »

– « . . برد ، برد ، برررررد

غطططاء . . برررررررر . . دٌ ، وططا »

. .

«إصحَ! إصحَ! . . خذ! . . خذ! واشرب ، اشرب قدح الماء . .!» .

مسعودة

السباب يهدر ويتناثر في باحة الدار وخلف الأعمدة الحديدية الأسطوانية الحمراء ، وفي الممرات وعبر الأبواب المشرعة . . يعلو ويتصاعد ويدور صداه في دوار المنور الوسيع ذي النوافذ المحزمة بقضبان حديدية ، والمطل على باحة الدار . . يدور مرة وأخرى وثالثة ثم يعود ليتناثر كهشيم زجاج مبعثر ، تتزايد حدته وصداه مع تزايد حدة الضربات على الشعر الأسود المعثكل المتلامع .

. . تهرب مسعودة . . تدور حول باحة الدار . . تحتمي وراء الأعمدة ، تهرب إلى عمود آخر ، تتعثر وتنكفىء على وجهها ، ويرن صدى ارتطام وجهها بالأرض ، تزحف إلى زاوية قريبة . . تتكور كالقنفذ وتخفي رأسها بين ركبتيها وذراعيها المعقودتين . .

عندما تعجز السيدة عن اكتشاف مساحة كافية من الرأس لقبقابها ، تبحث كفها عن أكبر عثكولة من الشعر الكث الملطخ ببقع الدم وتملأ قبضتها منه .

يخرج رأس مسعودة من بين فخذيها وهي تقعي ، ويظهر وجهها بنفسجيا قرمزيا عاتما محتقنا ، بعينين جاحظتين اتسعتا

واستدارتا من الفزع ، وتلامع الوجه المتوزم بالمخاط والدمع والعرق .

. . يجد القبقاب الخشبي الثقيل مجاله إلى ما ينكشف من رأسها وينهال كالمطارق . . تتكور أكثر .

. . يستمر الضرب فيصيب خلفية الرقبة المنحنية ومساحات من الذراعين وأعلى الظهر .

يهتز الجسد الأسود المربوع . . يتلوى . . يدور على نفسه . . يحاول الزحف فتنكشف مواقع أكثر منه . .

. . تتزايد صرخات التوجع وولولة الاسترحام والاستنجاد :

- دخيلك عمة . . دخيل الويلاد . . دخيل السيد . . دخيلج حجية . . أبوس رجلك خاتون . . خاطر الإمام . . لخاطر الحسن والحسين . . اروحلج فدوة . . التوبة والله التوبة . . عممم . . .

يعود التوسل بالأسماء نفسها وغيرها ، وبكل ألقاب التبجيل وبنبرات مختلفة . . يختلط ويضيع أحيانا بين الشتائم المنهالة مع الضرب .

لا فائدة من كل تلك الاستجارات بسلسلة الأئمة والمقربين في تهدئة السيدة - العمة ، الحجية ، الخاتون ، الباجي . . - وجه السيدة الأبيض يزداد توردا واحمرارا وتوزما . . تشتد تكشيرات الغضب وكزكزة الأسنان . . الوجه المحتقن الغاضب يدور مع اليد المرفوعة بآلة التعذيب الخشبية المتهاوية بلا انقطاع .

. . يستمر هدير السباب عبر الصوت الذي بدأ يبح ، مكررا تصميمه على «تكسير رأس مسعودة» و«تقطيعها وصلة وصلة»

و«رميها للكلاب السود» . .

. . تبدأ السيدة باللهاث . . تتباعد كلمات الشتائم وتطول . . تخف الضربات . . تتباطأ نوبات الضرب . . تضعف ، ثم تتوقف منتهية بركلة قوية على الخاصرة .

– ألف مرة خبّرتك يا بنت الكلب أن تنظفي غرفة الضيوف قبل يوم الأربعاء . . تريدينْ تخزيني كَدام الضيوف . .

تدمدم السيدة بكلمات متقطعة لاهثة وهي تبتعد عن الكتلة الشوهاء الباكية المقرفصة في الزاوية ، لتلقي بنفسها على تخت خشبي وثير في باحة الدار .

– كلبة ، خنزيرة ، قحبة ، مايفيد وياك الضرب . . يراد لك حرق . . والله لصب عليج فد يوم تنكة نفط واحركَج واخلص .

كنا نقف متصلبين كتماثيل خشبية ، مبهوري الأنفاس قرب الباب المفضي إلى الحديقة الوسيعة ، فزعا من أن تنتقل زوبعة الغضب فتصيبنا نحن من بعد مسعودة .

« . . شيء مخيف التقطيع وصلة وصلة! . . الأفظع منه رمينا مقطّعين إلى الكلاب . . الكلاب السود!! . والحرق! تكاد تبتل سراويلنا من ذكره . . »

« . . نحترق كوقدة نار مستعرة ونتقافز ونركض بشكل عشوائي ، ونصطدم بهذا العمود وذاك الجدار وتلك الباب ، تماما كما حصل حينما صب محسن النفط على كلب مجذوم في بستان جارنا وأشعل فيه النار . . يا للهلع الذي أصابنا في حينه

ونحن نتراكض مبتعدين عن الكتلة المزمجرة الملتهبة وهي تنطلق مسعورة ، قافزة ، نابحة ، مولولة ، مكزكزة ، تصطدم بهذه النخلة والشجرة ، وبالسياج الطيني . »

. . رائحة الشواء الزنخة كانت قد ملأت أطراف البستان . ملئت خياشيمنا لأيام في كل وجبة طعام تلت ، وخصوصا حينما تكون ضمنه لحوم مشوية .

. . كنا نقف على اهبة الاستعداد للهرب محملقين بغباء بالسيدة اللاهثة من التعب ، المزمجرة بكلمات لا نفقه بالتحديد معانيها ، إلا أنها تزيد من فزعنا وغبائنا وحملقتنا .

– بنت الزنيم ، خنزيرة سودة ، أم الشحولة ، غراب البين ، الغبرة الدبرة . .

كان كل واحد منا يستعيد حتى أصغر الأخطاء التي ارتكبها ذلك اليوم ، بل وحتى السابقات منها والتي أفلتنا من عقابها لأيام مضت . . حتى التحرش الحذر بابنة بائعة الحليب في الكوخ القريب .

يتزايد اقترابنا من الباب المفضي إلى الحديقة . . يعرف كل منا الأجزاء المتثلمة من سياجها الطيني . . لقد مارسنا الهروب عبرها في أيام سابقة ، وكنا حين نصل إلى التربة الآمنة بتخطينا فسحة السياج المثلومة ، دون أن ندرك ونحن في منجى من الخطر ، كيف تمكنا من هذا الاجتياز العظيم ، ونحن لا نستطيع في مسابقاتنا في هذه الأماكن نفسها أن نقفز نصف هذا العلو .

. . صحيح أن واحداً منا قد لا يسعفه الحظ في التشعبط والقفز إلى البستان المجاور ، فيقع تحت رحمة عصا السيد أو نعل السيدة الجلدي .

. . كلاهما شديد الإيلام ، ويبقى أثره لأيام على أجسادنا . .

كنا نقرفص مرتجفين في الجانب الآخر من الطوف الطيني ، وأكبادنا تنخلع لصيحات الألم ونداءات الاسترحام وطلب المغفرة للضحية من مجموعتنا ، التي خانتها سيقانها في القفز في اللحظة المناسبة .

– التوبة والله بعد ماسويها . . يابوي التوبة . . يا يمه دخيلك . .

نظل ننتظر بصمت انتهاء العقاب ، وتملص الضحية من جلادها بعد فترة ، لتقفز وتلحق بنا في البستان المجاور . .

– مايخالف! . . لاتبكِ ، كافي وامسح مخطانك! . .

نربت على كتف خائب الحظ منا ، وقد يمنحه أحدنا نصف برتقالة من غنائمنا في بستان الجار . .

نتراكض بعدها بقليل وكأن لم يكن هنالك رعب قد لاحقنا . .

نصل إلى حافة الجدول القريب . .

– دعني أريكم شيئا . . يا الله تعالو ورائي!

أقول ذلك بشكل فيه الكثير من الجد والغموض العجائبي ، وأتوجه بهم مشيرا بذراعي الممدودة بفخر إلى مساحة رملية صغيرة قرب الجدول ، مسيجة بكسر صغيرة من السعف المتيبس .

– ها هي مزرعة خرفاني ، لقد زرعت عشرة عثاكيل من الصوف

قصصتها من خروف البستان . . أسقيها بانتظام ، مرة كل يومين . .

. . أيام قليلة وتنبع منها قرون خرفاني الجديدة . .

الكل ينظر بانبهار إلى الكتل الصوفية النابعة من التربة الندية . . ثم يعيدون النظر إليّ بانتظار حدوث شيء ما . .

– لقد سمعت السيد مرارا وهو يعلو بصوته « ازرع صوف! يطلع غنم!» ، كان يقولها لاصحابه الزائرين . . « نعم ازرع صوف يطلع غنم!» . أقول لهم موضحاً .

لا زلنا نراقب قرب نهاية المشهد بين السيدة ومسعودة ، والذي كان يتكرر يومياً ، مع بعض التحوير البسيط في الشتائم المستعملة أو أدوات العقاب . . لم يكن السبب يغير كثيرا في عنف الهجوم أو مدته . . أحيانا لا نتوصل إلى السبب المعلن ، حتى حين نتحاور في تفاصيل الحدث عبر سياج البستان .

السيدة تتكىء بظهرها على مسند التخت ، وتمد إحدى ساقيها على طولها ، على حين انحدرت الاخرى باسترخاء من حافة التخت ولامست الأرض . . لا زالت تلهث ولكن بدرجة أقل ، كما واختفى توزم واحتقان وجهها .

من حين لآخر كانت تلقي نظرة على الجسد المكور والرأس الذي لا يزال نصف غائر بين الفخذين ، على حين تجعّدت عثاكيل الشعر الخشن ، والتصقت ببعضها بالدماء الجافة ، كجزة خروف بعد الذبح . .

كلما ارتفع أنين مسعودة الخافت وبكائها وتحول إلى ولولة

ونحيب ، زمجرت السيدة وصرخت :
- انخنقي واسكتي وإلا اقوم واشفي غليلي بك من جديد!
تصمت لفترة قليلة ثم يعود الأنين والبكاء .
- ارموا لهذه المنحوسة أسلابها! ودعها تغور عن وجهي!
تشير إلينا بنصف التفاتة إلى أشياء متناثرة نعرفها في وسط الباحة وأطرافها . .
. . فردة نعل مطاطي هنا ، وأخرى هناك . . عصابة رأس مجعدة زرقاء بورود ناعمة حمراء ، اسورتان زجاجيتان ، إحداهما قد تهشمت تماما وتبدو الأخرى سليمة ، كنا نعرف أن من ضمن هذه الأسلاب ، مكنسة الخوص التي تكاد لا تفارق يد مسعودة .
«تغور» مسعودة في ظلام المطبخ العتيق .
. . نقف متنصتين بوجوم حذر قرب باب المطبخ للدندنة الخفيضة الناحبة التي تذكرنا بتنويمات الأطفال الرضع الحزينة في مهودهم .
من أين ، متى ، وكيف نبعتْ هذه (المسعودة) الشابة الربعة السوداء في بيت أقاربنا في الريف الجنوبي ؟!
هذه الأسرار كانت عصية حتى على أبناء السيد الصغار . . لا أحد يعرف ، ولم يكلف أحدنا نفسه مشقة السؤال وربما مخاطره .
كل ما نعرفه ، أننا وجدناها مهرولة بشكل شبه دائم في باحة الدار ، يلاحقها القبقاب الخشبي الثقيل ذاته .

لا دار دون مسعودة! مثلما لا دار دون تلك العمدان الاسطوانية الطويلة التي ترفع سقفها المنفتح على زرقة السماء المضببة بوهج الظهيرة . . هناك نرى حين نرفع أعيننا تجاه السطح مسعودة مع الأحزمة الضوئية التي تعوم فيها ذرات الضباب المضيء .

من الصعب علينا استحضارها في ذاكرتنا الصغيرة ، أصغر مما هي عليه عمرا ، أو مرتدية غير ذلك الثوب القصير بوروده البيضاء المتسخة ، المنثورة على خلفية حائلة الزرقة . . نعلان مطاطيان يشدان على القدمين الضخمين تظهران من بين اصابعهما وعقبيهما آثار بائدة من الحناء .

لا نعلم متى كانت تصحو ، غير أنّا عند الفجر حين ننسل من أسرتنا فوق السطح ، نازلين بحذر اللصوص إلى باحة الدار ؛ نجدها تدندن بألحان أغان لم نسمع بها من قبل وهي منهمكة في رش البيت وكنسه . . لا تترك مسحة غبار أو قشة عالقة في أية بقعة من فسحة البيت أو المطبخ قبل أن يحل موعد نزول السيدة التي تجري تفتيشها الدقيق على كل زاوية .

. . عند سماعها وقع أقدام السيدة على درجات السلم ؛ تتوقف دندنة الاغاني المكتومة ويسود صمت متوتر .

ثم يأتي موعد إعداد الخبز الطازج الحار . . أي مهمة التنور .

كم كا ن يلذّ لنا أن نساعدها في تقديم هذه الحزمة أو تلك من العيدان أو السعف اليابس عند بدء شجر التنور ، بل وقد نحاول أن نعدّل أطراف العجينة المفروشة كقرص مدور فوق مخدة الخبز المغطاة بقطعة قماش مشدودة . . نخفق في ذلك أغلب الأحيان . .

كم كنا نصخب ضاحكين حين كانت تقفز صارخة بهلع حينما يمسك لسان اللهب المتطاير باحدى عثاكيل شعرها ؛ فتغمس على عجل يدها الملطخة بالعجين باناء الماء المجاورو تخمد عثكولة الشعر المحترقة . .

كنا أول من نذوق الخبز الحار الخارج من التنور ، وغالبا ما تصنع لنا منه حنونات صغيرة مدورة .

. . ثم تأتي محنتنا اليومية . . مهمة مسعودة في نظافتنـــا .

. . كانت تسحبنا الواحد تلو الآخر فتدعك وجوهنا وأيدينا وأقدامنا بقوة ، غير عابئة باحتجاجنا وصراخنا ، وخصوصا حينما نحاول جاهدين أن نفلت من غسل الشعر ودعكه تحت صنبور الماء البارد ، والذي نخال معه أنها ستقلع فروة رأسنا . .

. . ندرك سبب حماستها تلك في تعذيبنا فيما بعد ، حين تستعرض السيدة نظافتنا .

تنظر السيدة بحزم وإمعان إلى الأيادي والأقدام والرقبة والشعر والوجه ، حتى ما خلف آذاننا .

بعد صينية إفطار السيد والسيدة التي تحضّر تحت اشرافها في المطبخ ، تحمل مسعودة إلينا صينية إفطارنا إلى غرفة جانبية ؛ وهي تختلف بأحجام صحونها ومحتوياتها عن تلك المقدمة إلى رب وربة الدار . .

. . مسعودة تقوم بفض النزاعات التي كانت تحصل بيننا اثناء الافطار ، أي على حصصنا من صحن مربى السفرجل أو القيمر .

. . كانت تضع مربى السفرجل الذي تبرع في اعداده في مرطبانات تصفّها فوق رفوف عالية في المطبخ ، يكاد يستحيل علينا الوصول اليها عند اختفاء الرقيب . . يكاد! . . نفلح أحيانا!!

ترسلها السيدة إلى السوق بقائمة طويلة من الطلبات مع توصيات كثيرة تعاد على أسماعها يوميا قبل الخروج .

- إياك وأن يغشك القصاب في الوزن! . . اللحم شرحة بدون جلافيط وعروق! . . عصفورة زند! . . البامية ترفة وصغيرة! . . الطماطة تختاريها وحدة وحدة! . .

تنتهي قائمة النصائح بالتحذير الرهيب :

- الفلس اطلّعه من غلاصيمك لو تجاسرتِ وأخفيتيه! . . اطلعهْ من عيونك! . . أكسّر عظامك لو تأخرتِ ورحت سائبة كالكلبة في الدروب! . . ومجموعة أخرى من التحذيرات المخيفة .

تعود مسعودة بزنبيل الخضار واللحم ، وما يلفه العطار في أكياس ورقية . . تضع المشتريات فوق منصة المطبخ الخشبية بعد ان ترتبها حسب أقيامها ، وتقف منتظرة تفرّغ السيدة وقدومها للتدقيق والحساب .

. . وتأتي ساعة الحساب وهي عسيرة! . .

تزن السيدة اللحم بكفها . . تقلبه بأصابع اليد الأخرى ، تقربه من عينيها متفحصة . . تشم رائحته .

. . تفحص كل قطعة من الخضار ، تعقبها لحظة تأمل وهزة

عدم اقتناع من شكل أو وزن الأصناف . . تفتح أكياس العطارة وتشم روائحها . .

خلال عملية التمحيص والحساب ، لا ينقطع صوت السيدة المتشنج من الدمدمة المصحوبة في الغالب بالشتائم التقليدية . . الزجر الفجائي قد ينطلق في أية لحظة تقفز معه مسعودة إلى الوراء ، واضعة كفها على جانب وجهها اتقاءا لصفعة مرتقية . .

ينتهي الحساب العسير في الغالب بالسؤال اليومي المعتاد :

- كم نسيت في جيبك من بقية الحساب!

- . . والله ، والنبي! لم آخذ فلسا واحدا . . والله باجي! . .

حين ترى أن هذا الحلفان الأولي لم تظهر منه معالم القناعة على وجه السيدة ، تكمله بحلفان أكبر :

- وحق أمير المومنين . . والحسن والحسين ، ما أخذت شي! . . » .

وحين لا تزول معالم الشك من الوجه المتجهم بمواجهتها ، تتصلب ، ترتجف ثم تطلق حلفانها الرهيب :

- والعباس أبو راس الحار ما أخذت شي! . .

حتى هذا الحلفان الأكبر قد لا يؤدي إلى القناعة المطمئنة ، وينتهي المشهد اليومي في الغالب ، بأن تمتد يد السيدة إلى جيوب مسعودة ، في بحث دقيق لا يعطي نتائج مقنعة رغم خروج اليد فارغة ، وتأتي صفعة غيظ الفشل من عدم اكتشاف الجُرم على الخد الأسود الذي سرعان ما تبلله دموع صامتة ؛

وهي تتحرك ببطء لتقوم بتوزيع المشتريات في أدراج المطبخ أو فوق رفوفه أو في قدور ذات أغطية ثقيلة .

جمع البيض من بين أكوام القش في سقيفة الدجاج من مهمات الصباح أيضاً ، يتبعه تقديم علف الخروف الذي أهداه فلاحون من قرية السيد إلى رب الدار ، وملء صحن الماء أمامه .

. . لو شحّ ماء الصحن تعالى صوت السيدة :

- يارب يقصف عمرك ، وتشوفين عطش جهنم ، يا مجرمة ، يا قاسية القلب . . تريدين تموتين الحيوان المسكين من العطش ؟!

لو نفقت إحدى الدجاجات فهي المسؤولة الأولى ، حتى لو أكّدت لها بالأيمان الغليظة أن دجاجات البستان المجاور قد نفق نصفها من وباء (أبو الضريّق) .

. . غسيل مسعودة للملابس ، نشرها على الحبال - يسهل علينا لعبة الاستغماية خلف الستائر والأفرشة المنشورة - ، ثم يأتي كيّها ، ثم هندام صغار السيدة وصبغ احذيتهم قبل خروجهم .

هنالك مهمات أخرى لا نراها كاملة ، كدخولها مع السيدة إلى الحمام ، أو إعداد العصيدة السكرية الكثيفة الحارة - يحرم علينا تذوقها - والتي تقوم بفرشها على قطع طويلة من القماش ، ثم تضعها على صينية تنقلها إلى غرفة نوم السيدة وتحكم غلق رتاجها وراءها . .

. . قد تسبق طقوس استحمام السيدة وما بعدها همسات في

أذن مسعودة قبل أن ترسلها إلى الجارة أم لطيف . . يدور الهمس مع التأكد من عدم وجودنا على مقربة للتنصت . . تعود بأكياس صغيرة من مساحيق بيضاء .

أخطر المهمات التي غالبا ما تؤدي إلى انفجار غضب السيدة وتكرار مشهد معركة القبقاب ، وأخيرا انشغال مسعودة في وضع عطباتها الصوفية فوق جروح فروة الرأس في عتمة المطبخ هي تنظيف وإعداد غرفة الضيوف يوم الأربعاء .

. . الأربعاء هو يوم (القبول)! .

. . حل المساء وبدأ (قبول) السيدة . . نرقب عن كثب ونتهامس ضاحكين معلقين على الضيوف .

. . تتكرر الوجوه ذاتها كل أربعاء ، وتتبدل الأزياء والعطور التي أخذنا نميز صاحباتها من خلاله ، كما تتبدل رنات كعوب الأحذية وخشخشات الحلي الذهبية . .

هذا يومنا في الاستمتاع بسرقات خاطفة من صحون مربى السفرجل ، وحفنات من المكسرات والحلوى المرصوفة فوق منصة المطبخ ، قبل أن تقوم بنقلها مسعودة إلى الضيوف .

. . ليالي الأربعاء هي فرصتنا في ساحات المعارك التي تدور في نسمات المساء الندية ، فوق أسرة السطح والتضارب بالوسائد ، والاختباء عن أعين الأعداء المهاجمين في غرفة الأفرشة بين الحشيات والألحفة .

حين يصيبنا الانهاك ننزل للتنصت الحذر قرب باب غرفة الضيوف . .

- . . وطلقها بالثلاث . . أي والله بالثلاث ، ورماها إلى أهلها رمية الكلاب . . «المسكينة المكَرودة . . إجاها الخط المصخم للبيت بعد ثلث تيام»

- باداده! والفروخ الصغار المساكين وين بقو؟

- ضلوا وياه ، ويه أمه . . عمتْ عينها شلون بيبيه! عجوز الشوم! ، هسه راح تراويهم الضِيم .

. . استمرت تفاصيل طلاق فتحية والنقاش الحار حول مصيرها لمدة غير قصيرة علت فيها أصوات ، وشتمت أصوات أخرى ، وتصاعدت أدعية إلى الله والأئمة «بقصف رقبة اللي كان السبب» . .

ثم انتقل الحديث بالهمس أولا عن علاقة بنت أم أحمد المريبة بابن الحاكم . .

- يكَولون بأيومَّهْ!! صَخّمها!

تلتها تفاصيل بصوت هامس مع تتمات لحكاية البنت «المصخمة» من أخريات ، ثم عن تسلل (الداية) إلى دارهم أثناء الليل لمرات عديدة ، ثم اختفاء بنت أم أحمد إلى جهة مجهولة .

- . . خاف سوولها شيِ ، المسكينة ؟!

- لا هذولي مو مال كَتل وذبح . .

- ياهو اللي يسأل ، يكَولون راحت عند خالتها بالبصرة .

. . ثم يلي ذلك ، كما في معظم الجلسات ، حديث الذهب والصياغة وسعر المثقال ، وحجول نعيمة الجديدة ، وأقراط أم

هاشم الثقيلة .

في صيف آخر ، وفي زيارة جديدة للبقاء في دار السيدة فترة من العطلة المدرسية ، لاحظتُ وصحبي من الصغار في البيت تغيرا ملحوظاً ومسراً على سلوك مسعودة وهندامها ، بل ومحاولتها تنفيذ أدق ما تطلبه السيدة بصبر وبابتسامة رجاء واستعطاف :

– أمرك باجي! . . من عيني هاي وعيني هاي! . . شما تؤمرين سيدتي! . . أروحلك فدوة سامحيني على غلطتي الصغيرة! . . أنا خدامتك وعبدتك وما أريد إلا رضاك! . .

إلى غير ذلك من الاستعطافات التي قللت بالفعل من هياج السيدة ، وتباعدت معها مهرجانات القبقاب الدامية .

. . زاد سماعنا لصوتها وهي تدندن في خلواتها في المطبخ أو وراء التنور ، خصوصا عند غياب السيدة عن البيت ، بأغان جديدة كنا قد ألفنا سماعها من الراديو في برامج الصباح . . كانت تختلف تماما عن تلك الترنيمات الحزينة التي كانت ترددها في الأيام الفائتة ، والتي كنا لا نفقه معظم مفرداتها .

. . أصبحت أقاصيصها لنا حين ترافقنا إلى اسرتنا في الليل ، تنتهي في الغالب بنهايات سعيدة كالعثور على الكنز المخبأ ، أو عودة الحق إلى أصحابه ، أو زواج الابنة التي كانت تحبسها زوجة الأب في التنور حين يأتي خطابها إلى الدار ، بعد أن يصيح الديك «عي عي عيعو ، عي عي عيعيو . . الموحلوه بره

والحلوه بالتنور . . الحلوه بالتنور!»
زارت أم سالم السيدة تصاحبها امرأتان من معارفها . .
. . ركضت مسعودة باضطراب كبير إلى المطبخ .
. . دار حديث علا فيه صوت السيدة وتوزم وجهها .
. . لان الصوت قليلا واعتدل بعد رجاءات أم سالم ومن معها .
. . علا من جديد مع تهديد شديد :
- لتصطبر! والله لاكسر رقبتها . . الـ . . . ، الـ . .
عادت الرجاءات ونهضت إحداهن وقبلت رأس السيدة .
- ينوبك ثواب . . هي خدامتك عمر طويل! ، وما يروح بيها المعروف . .
تهدأ السيدة . . وبعد نوبات أخرى من الاستعطافات . . تبتسم على مضض .
- هذي بس لخاطر ها الزيارة ، ولخاطر أم سالم . .
ثم أضافت بصوت أكثر جدية :
- أعطونا أنا والسيد مهلة نفكر . . سنخبركم بعدها متى يمكن ان يحضروا . . وإذا كانت هنالك قسمة! . . انشاء الله يصير خير .
كنا نخمن ونتهامس بيننا بأن هنالك شيئاً ما جديد يدور في الخفاء حول مسعودة ، وأخذنا نسترق السمع إلى أحاديث الليل الخافتة التي تدور على السرير العريض ذي الكلة الكبيرة المسدلة ، قبل أن يتحول الحديث الهامس إلى حسحسات

وصرير للسرير المهتز ، وأنات وأصوات غريبة غامضة ، قد يعقبها بكاء قصير تتبعه كركرة ضحكات مكتومة .

في تلك الأيام المميزة بتبدل طبيعة انفجارات غضب السيدة التي أخذت مجرى مغايرا بعض الشيء لسابقاته .

إشارة البدء نفسها بالصرخة الصاعقة التي تشل لا مسعودة وحدها بل حتى نحن الهاربين كالعادة إلى البوابة المفضية إلى البستان . . الجري والمطاردة والزوغان نفسها من القبقاب الخشبي الثقيل . .

الهيئة القنفذية المتكورة نفسها وراء أحد الأعمدة . . تعابير الاسترحام والترجي نفسها ثم أنات الألم والتوجع . . فقط هنالك تبدل طرأ على شدة الضرب الذي خف وتباطأ مع نهاية أسرع للمهرجان الصاخب وأقل دموية ، فلا عطبات كبيرة تزين فروة الرأس بعدها .

. . أضيفت بعض العبارات الجديدة ما بين الشتائم

– أم الرجال! . . أم المواعيد في الدروب! . . عرس ، عرس!؟ ها عرس!؟ . . كله من وراي يا قحـ . .

أخيرا عرفنا الخبر المفهوم عند الصباح ، أن «مسعودة راح تعرّس» ، وأن هنالك من هو قادم هذا المساء حول قضية «العرس» .

. . هزجنا في البستان ودرنا حولها وسحبناها من أطراف ثوبها وهي تستعد للوقوف وراء التنور .

– مسعودة راح تعرّس هيه هيه! مسعودة! مسعودة . . مسعودة

راح تعرس هيه هيه! مسعودة!
كانت تكركر جذلى وهي تبتعد بمرح عن قفزاتنا الصاخبة الرعناء ، ووجهها يتحول وراء لفح لهب التنور إلى احتقان ضاحك بنفسجي قرمزي داكن .
اليوم تدور مسعودة لأول مرة في زوايا البيت ، وبين المطبخ وغرفة الضيوف ، بمهماتها ببدلة نظيفة وبحذاء جلدي ، وشعرها قد خفّت عثكلته ورُتّب وبرزت من وراء غابته البنفسجية الغامقة السوداء المتلامعة جديلتان صغيرتان عُقدتا في شرائط قصيرة حمراء .
أُعفيتْ مسعودة من مهماتها الثقيلة في المساء ، وكانت شتائم الصباح محدودة جدا ، اقتصرت على فترة تقديم الإفطار ، وكان السيد قد أنهاها بإشارة تنبيه إلى السيدة بعينيه . .
. . ما كان من السيدة إلا أن ردت التأنيب بقفشة عاجلة ، حين علقت على تأكيده على ذهابه إلى حمام السوق ، أمس استعدادا لاستقبال الضيوف القادمين :
- لقد قلتُ لكِ إنني ذهبت إلى حمام السوق أمس!
نظرت السيدة إليه بسخرية وأشارت إلى كعبي قدميه المسودتين :
- يبدو أنك قد نسيت أمس أن تأخذ قدميك معك إلى الحمام .
أثار ضحكنا العفوي الصاخب وابتسامة مسعودة الخفية المكتومة ثم هروبها إلى المطبخ ، أثارت غضب السيد الصامت

الذي غادر صينية الإفطار والدار على عجل .
بعد المغرب بقليل أحسسنا من التحركات السريعة في الدار أن الموعد قد اقترب .
اشتد تناوب مسعودة بين المطبخ وغرفة الضيوف وباحة البيت .
كانت تعابير وجهها مشوشة قلقة . . تتجمد للحظة وتضيع نظراتها الساهمة في جهة بعيدة خفية ، ثم يفتر ثغرها عن أسنان مرصوصة يتلامع بياضها في عتمة الوجه المبتسم .
. . تصطدم بنا في حركتها الساهية . .
. . نصطدم بها عن عمد متضاحكين .
. . نسيت مسعودة ، أم تعمدت النسيان ، حين قدمت لنا برتقالة ثانية بدلا من الواحدة المقررة لكل منا يوميا .
. . نسيت كذلك مرطبان مربى السفرجل على منضدة المطبخ . .
. . أتينا على نصف ما فيه .
أعقب طرق الباب الخارجي عند المغرب ، هروب مسعودة المتعثر إلى المطبخ .
كان الرجال أول الداخلين ، وتوجه السيد بهم إلى غرفة الضيوف .
. . كان معظم الرجال القادمين بعباءات جز أنيقة وغتر مرقشة ، وعقالات تختلف بغلظها .
تلا ذلك بدقائق حضور النساء ، وتقدمتهم السيدة إلى التخوت المرصوفة في باحة الدار .

تسمعنا من موقعنا المتنصت في ممر البيت ، قرب باب غرفة الضيوف ، إلى كلمات الترحاب والسؤال عن الصحة والأحوال ، وعن سير الأعمال في بستان السيد وبساتين بعض الضيوف ومهن الآخرين ، وعن مشقات الزمان الصعب وغدر الزمان المتقلب .

. . ساد صمت مفاجيء في الغرفة ، أعقبته نحنحات وسعلات خفيفة .

- نتوكل على الله يا جماعة ، وخلي الشيخ أبو نزار هو اللي يتكلم بلسان الجميع ويدخل بالموضوع .

قطع الصمت صوت خشن ، تبعته أصوات مرحة تؤكد الاقتراح ، وكلمات على خيرة الله ، وتوكلوا بالله ، ودعاء للسيد رب الدار بعمران داره ودوام عزه .

في جبهة الرجال تلك ، كل مقدمات الحديث و«الدخول بالموضوع» ، وتعقيبات رب الدار وردوده كانت تجري بأصوات هادئة متزنة ، تتخللها رنات مرحة وأدعية بالخير .

أما على جبهة السيدة ، فقد كان الموقف مغايرا لذلك . .

. . السيدة ، ورغم إصرار السيد ورجاءاته ، أبت إلا أن تستقبل النسوة القادمات بملابسها البيتية الاعتيادية .

. . ترحابها كان مصبوغا بلهجة رسمية صارمة ومتحفظة .

. . المقدمة في حديث النسوة عن الأطفال وتربيتهم وشؤون البيت الصعبة التي لا تنتهي ، وعن مواسم زيارات الأئمة المعصومين ، وعن عودة الحاجة أم علوان من بيت الله ، كانت

تقابل بصمت السيدة أو بكلمات قصيرة مبتورة يقف لغط الحديث فيه عند الضيفات ، وينقطع لبرهة ليعود ويتحول إلى موضوع آخر على أمل بث الدفء في الموقف الصعب .

تنحنحت إحدى السيدات المسنات :

– عليك يا أمير المومنين وبصاية آل البيت وخلي الحاجة أم علوان تبتدي حديث الخير . .

وتحدثت الحاجة أم علوان ، وقوطعت بكلمات السيدة المتشنجة ، وتدخلت الجارة أم سالم باستعطاف ، وعادت أم علوان متلعثمة في عبارات صاغتها بشكل آخر . . لحظات وعلا صوت السيدة بغضب . . الجارة أم سالم تقوم وتقبل رأسها ، ويعود الحديث ويصخب بمداخلات بقية النسوة وبرجاءاتهن .

. . ثم تزايد الضجيج وامتزجت الأصوات والسعلات وأفافات السيدة ، وأدعية الخير وأسماء الائمة . .

انقطع الحديث حين وصلت نحنحة السيد من الممر واستئذانه من النسوة لكلمة على حدة مع السيدة .

. . دار الحديث بين رب وربة الدار في ممر البيت وعلى مقربة منا همسا ، وكانت فيه رجاءات منه وتطمينات ، وحين كان صوت السيدة يبدأ في العلو ، كانت توسلات السيد تزداد . .

وعادت السيدة إلى مكانها بين النسوة في باحة الدار ، وسمعنا أصوات مرحة من غرفة الضيوف أعقبتها عبارات

– على بركة الله ، على خيرة الله ، الله يتمم بخير ، ثم صوت أبو نزار الخشن الجهوري :

- خلي إيدك بأيدي سيدنا ، وخلينا نقرأ الفاتحة سيدنا .
على الجبهة النسوية بدأت احدى السيدات بالزغردة التي لم تطل ، بعد أن أشارت السيدة إليها بخشونة بالتوقف .
علمنا في تنصتنا الليلي من حديث تحت الكلة فوق السطح ، أن العريس المنتظر هو علوان .
. . نعم علوان . . علوان الأسود نفسه ، عامل مضخة السقي الضخم في البستان المجاور ، والذي لم نره إلا ملطخا بالسخام والدهون .
. . رغم ذلك المظهر الهائل المتطاول كجذوع النخيل ، فقد كنا على كامل الود والتفاهم معه ، فابتسامته وتلويحة يده لنا من بعيد ، كانت تمهد لنا سبيل الاقتراب منه ومن (خنزيرة) الماكنة ، ذلك الحوض الاسمنتي الواسع الفوار بالماء الدافق من أنبوب المضخة الضخم ، كان يتآمر معنا على السماح بالقفز والخوض في الخنزيرة ، شرط أن لا تكون ملابسنا مبلولة عند الرجوع إلى الدار ، تحسباً لعقاب السيدة لنا ولما يجره عليه لسانها من شتائم وتهديد .
كنا قد لمحناه مساء ذلك اليوم بين مجموعة الرجال الذين قدموا إلى السيد في غرفة الضيوف . .
كان مظهره مختلفا تماما . . مارد أسمر بصاية أنيقة وعباءة جز طويلة مقصّبة ، ولفاع رأس رمادي فاقع مرقط ، وحذاء لماع ، ووجه رصين جاد .
مرت أيام وكانت فرحتنا نحن الصغار لا حدود لها إذ دعانا

أحد اقرباء السيد لعرس ولده في قرية غير بعيدة . . عرس ، وحلوى وألعاب صاخبة مع أولاد القريب الصغار ، في غياب رقابة الأهل المنشغلين بالعرس والمدعوين . . تشعبط على الأشجار المثمرة ، وسباحة في جدول البستان ، ومبارزات بأعواد جريد النخل ، وأقاصيص عن الجن والطناطل تحت وشوشة سعف النخيل في الليل .

غادرنا إلى القرية ، وبقيت مسعودة في البيت كالمعتاد في مثل هذه الغيابات .

كان معظم ما حلمنا به قد تحقق في أيامنا تلك في بستان أهل العريس ، وتركنا قسماً من إنجاز بقايا أحلامنا لأيام تليها ، حينما نصحو مبكرين والكل نيام لأوقات متأخرة بعد فوضى الأعراس الليلية . غير أن إصرار السيدة على العودة المبكرة بعد أيام قليلة من وجودنا أضاع الكثير علينا .

وصلنا عائدين عند المساء ، وكانت مسعودة بفرحة لقائها المعهود لنا عند عتبة الباب ، وسارعت لنقل الامتعة والسلال من سيارة الأجرة إلى داخل الدار .

كان الشاي والبسكويت والخبز الحار ومربى السفرجل في انتظارنا .

هرعنا إلى السطح نستقبل أنسام الليل ، وبدأنا قفزنا المعهود فوق الأسرة والفرش الندية الباردة التي كانت تغري بالاستلقاء فوقها ، وتبادل حكايا الجن والطناطل والأشباح ، التي كانت تدور بين الكلل الشفافة المتماوجة مع هبات النسيم في حلكة الليل .

في صبيحة اليوم التالي ، وفي وقت غير مألوف لمواعيد نوبات غضب السيدة ، صحونا خائفين مذعورين على صرخات استنجاد واسترحام ، ومناشدة باسماء الأولياء والأئمة والأبناء ، والسيد المحفوظ طويل العمر .

كانت المطاردة من اطول ماشاهدناه ، والضرب هو الأعنف والأقسى . .

لم يكن من الطريدة المرعوبة المنكوثة الشعر المبحلقة الأحداق ، الصارخة بفزع إلا أن تقفز هذه المرة إلى غرفة المؤونة في المطبخ ، وأن تحكّم بابها الثقيل خلفها . وكأن في حركتها الدفاعية تلك الفرصة التي كانت السيدة بانتظارها ، فما كان منها إلا أن تضع القفل الضخم المعلق في رتاجها الخارجي ، وتحكم اغلاقه وتطلق زعقتها الغاضبة :

– من ها الحبس يا مصخمة الوجه ، إلى حبس الشرطة!

ثم استدعاء السيد من أطراف البستان ، وهُدد بالصوت الغاضب المزمجر بأن يتصرف وفق ما تمليه خطورة الجريمة .

بدأ السيد رجاءاته برقة حينا وبعلو صوت حينا آخر ، ثم في احتجاج مستسلم محزون :

«والفضيحة ؟!» . . «والناس . .!؟» . . «والجيران . .!؟»

. . السيدة تلقي بأغلظ حلفانها بأن ستقوم « بالتصرف مع الشرطة» بنفسها لو اقتضى الأمر .

لم نجد في نهار ذلك اليوم أية متعة حقيقية في الأشجار التي كنا نتسلقها ، أو مطاردة الوز والدجاج ، أو بتشعبط طوف

البستان المجاور ، أو لم الكمري المتناثر بين جذوع النخيل ، أو حتي بالتعري والقفز في الجدول القريب . . لم نجد أية نشوة حقيقية ، كان هنالك طعم مر لخيبة أمل لا نعرف مصدرها بالتحديد .

كان الفضول يجتذبنا من حين لآخر كي نعود من البستان لنقف بخشية وصمت عند مدخل الدار برهة ، قبل أن نتوجه بوجل وحياء محزون إلى السيد بأسئلة متلعثمة . .

كانت أسئلتنا المتعاقبة ونحن نقف إلى جواره وأمامه ، تعجز عن كسر صمته . .

. . كان يضع رأسه المتهدل بين راحتي كفيه صامتا بسهوم .

حين نرى أن لا أمل في أي جواب ، نتحرك وجلين لنقترب من مجلس السيدة المتوتر فوق التخت ، لنكرر بعض تساؤلاتنا بصوت مرتجف حذر . .

. . يجبرنا صوتها الزاجر المرتفع إلى الهروب والتشاغل باللعب لفترة قصيرة في البستان ؛ لنعود للدخول خلسة إلى المطبخ والتنصت من وراء باب غرفة المؤونة المقفل إلى نحيب مسعودة وترنيماتها المنغمة الحزينة .

عند المساء طُرق الباب واستقبل السيد معاون الشرطة الذي دخل محيياً بملابس خدمته العسكرية الأنيقة المكوية جيدا ، يتبعه شرطي ذو ملبس خشن فضفاض أكثر عتمة وهو يتأبط دفترا ضخما .

كان الشرطي يكثر من ترديد كلمة «سيدي» لمعاون الشرطة ،

الذي كان يملي عليه بأنفة وبرأس مرفوع عبارات معقدة ، يعاود بعدها الالتفاف إلى السيد في حديث هامس ، قبل أن يملي من جديد . .

. . الشرطي يكتب ببطء كبير مستعيدا الكلمة والأخرى .

«علوان عامل المضخة . .» ، « . . حارس الليل في المنطقة . . » . . « . . جارتنا أم عادل» ، «كنا في أعراس أصدقاء لنا . . » ، « . . في أوقات في الليل» ، «غرفة الضيوف مضاءة في غيابنا . . » ، هذه بعض من العبارات التي تمكنت آذاننا من فهمها والتقاطها في تنصتنا من على مبعدة .

. . السيدة كانت تجلس على مقربة متشاغلة ، غير أنها كانت تتدخل مقاطعة أحيانا :

- عليكم اتخاذ الإجراء اللازم ، وإلا أرفع الأمر إلى جهات أعلى .

. . لا تنفع محاولات السيد في إيقاف أمثال هذه المداخلات .

- القحبة الزانية . . تدخل اسود الشوم هذا إلى بيتنا بغيابنا! . . إلى غرفة الضيوف . . الكلبة . .

في صباح اليوم التالي كنا نجلس مقرفصين بحزن في إحدى الزوايا ، نشهد المسيرة المفجعة . .

. . السيد يتوجه إلى الممر المؤدي لمدخل الدار . . مسعودة تكاد تتهاوى في مشيتها المترنحة أمامه ، معالم ذهول وقنوط وخواء على وجهها الذي بدا ذاويا . . العينان داميتا الاحمرار . . الجفنان منتفخان . . الأنف متورم . . الوجنتان ملطختان ببقع

من المخاط والملح والدمع والغبار المتيبس .
السيد طوال هذه المسيرة الشاقة عبر ممر البيت ، كان كجدار حماية لمسعودة من اندفاعات السيدة خلفه ، وهي تحاول أن تصل بيديها إلى رأس مسعودة ، وحين يقف السيد حائلا دون الإمساك بها ، ينطلق لسان السيدة بالعديد من مسميات الشتائم وأدعية اللعنة على الفتاة المغادرة .
رغم كل محاولات السيد المستميتة في أن تخرج بأمان ، فقد تعقبها القبقاب الخشبي الثقيل ليصيب منتصف ظهرها ، لتصرخ متوجعة قبل أن تمرق على عجل من الباب المفتوح إلى ضياء الطريق المغبش بوهج الظهيرة والأتربة العالقة .
- إلى صقر يا زانية . . هاكِ أسلابك!
كانت هي الصرخة الأخيرة التي انطلقت مع الصرة الخضراء إلى أتربة الشارع .
عند المساء تعالى صوت السيد باحتجاج وحزن فور عودته إلى البيت :
- إرتحت الآن . . لقد اقتادوا علوان إلى الموقف ؟!
تمضي الأيام ونعود إلى تسلقنا الصاخب لأشجار التوت وزرع الصوف لتفريخ الأغنام في المزرعة الصغيرة ، ونبش أطينة الجداول بحثا عن ديدان وردية زلقة .

***

نلتف مع الوالدة والأخوات الكبار وجارتنا أم فاضل حول منقلة لفحم متوهج ، ينتصب فوقها مسند خشبي ، ينسرح فوقه ومن على حواشيه ملحف صوفي ليغطي الركب والسيقان والأيدي المخبأة اتقاءً لبرد الشتاء القارس . . هو ما يطلق عليه الكبار جلسة (كرسي الشتاء) .

مواضيع الأحاديث التي يتناقلها الكبار دارت عن الجارة عمّة سنية ، وحمامجي الزقاق المجاور ، وعلاقاته المريبة بزنوبة المخشلة بأسورة وحجول ذهبية ، وطلاق المنحوسة أم سعيد من أبو سعيد . .

كانت رائحة قشور النارنج المحترقة تمتزج بعبق الكستناء وهي تشوى في المنقلة التي نلتف حولها .

. . قالت الوالدة وهي تنبش جمر المنقلة بالملقط المعدني الكبير .

– هل تدرين يا أم صباح بخبر مسعودة في النجف وهي في بيت صفية خان . . لقد سكبت صفيحة نفط كاملة فوقها وأشعلت في نفسها النيران ؟!

تغامز الكبار فيما بينهم إشارة إلى وجودي بينهم وانقطع

الحديث .

أغفى جميع من في الغرفة معي .

كلما هممت باغماض عيني في محاولة للإغفاء ، ظهرتْ أمامي صورة الكلب الأجرب المحترق في البستان وهو يركض عاوياً برعب دون وجهة محددة ، ليصطدم بهذا الجذع أو ذاك ؛ أو ليركض حاكا جسده الملتهب بسياج البستان الطيني . . يعود فيتجه في إحدى اندفاعاته صوبنا فنتقافز هلعين متشتتين . . يستمر اللهب المتوهج في التقافز الأهوج ، ويستمر الأنين في الظلمة . . أرى الحدقتين المتوسعتين بالرعب ، وأسمع كزكزة الأسنان المكشرة البارزة البيضاء للجسد المشوه بالكتل المتفحمة ، والأجزاء المتسلخة الحمراء التي تنز بسائل وردي صديدي .

. . تفوح في الغرفة رائحة شواء عفن زنخ .

السينمة

كان (س) يزورنا ، من مدينته في الجنوب ، مع زوجته السابقة ، فيقضي يومين أو ثلاثة .

ما إن يصل حتى يتربع الفراش الذي يُمدّ له على الأرض في غرفة الاستقبال ، ويضع كوفيته وعقاله إلى جانبه . ثم يقضي معظم وقته في ذلك المكان ، محاوراً أي فرد يوجد إلى جواره أو يمرق بالقرب منه ، أو أن يصب ويرشف بتلذذ فنجانه من دلّة القهوة التي توضع أمامه .

أحياناً يبدل موضع فراشه فينقله من الصالة إلى البالكونة المطلة على دجلة ، دون أن يبدل طقوس قهوته أو حواره .

أما زوجته السابقة ، وهي على صلة قرابة بعيدة غير مؤكدة منا ، فبرنامجها مختلف تماما ، فإما ان تراها وقد انحبكت في نسيج مشاغل نسوة البيت وحديثه ، أو لا تراها ، وهذا يعني أنها تقضي وقتاً غير قصير في زيارة الإمام الكاظم ، قاطعة الدرب إلى هناك سيراً على القدمين .

انقطع (س) عنا فترة غير قصيرة من الزمن ، علمنا خلالها أنه تزوج فتاة بدوية تصغره بما يقارب الأربعين عاما .

***

- أريد اروحن للسينمه!
- ويا من ترحين؟
- اروح ويَّ حسن .
نظر إليّ بارتياب ، هزّ رأسه بامتعاض ظاهر ، ثم وجّه نَظره من جديد إلى محدثته بدور ، وتململ بحيرة ، ودمدم بخفوت وغيض مع نفسه وهو يطاطىء برأسه باحثا عن مخرج لهذه الورطة غير المتوقعة .
-أكيد هاي من تحريكاتك! ونظر اليّ شزراً واستطرد متحدثاً إليها بعتاب . . بغداد مدينة واسعة وغير مأمونة في الليل ، ومشاكلها هواية ومثل ما آنه اعرف ، حسن ما يندل دروبها واجد ، صحيح هو ابن بغداد ، لكن بيني وبينج ، عيونه زايغة شوية . .» .
- مو هيجي وليدي ؟ قالها بنبرة ساخرة مشككة ، ثم وجّه نظرة حراقة إليّ وكانه يُلزمني بالجواب .
لم أجب بالطبع ، بل أطرقت مقطباً .
كنت أدرك سر حيرة (س) فمنذ الساعات الأولى لقدومه إلينا بعد طول غياب مع نعمة زوجته الجديدة وأختها بدور ، لم ينقطع عن الاهتمام ، لا بزوجته بل ببدور ، وإلى مشاغلتها على الدوام بحجة الاطمئنان على راحتها ، أو أن يرشقها بنظرات متأملة دافئة يتيه بعدها في سرحان عميق ، يقطعه عليه أحيانا حديث أو سؤال عابر . وكان يحاول بشتى الحجج والطلبات ، أن يبقيها إلى جانبه في الصالة .

- بدور! تغْبَتجْ الرحلة ؟
- بدور! خو مو ضايقوجْ الصغار؟
- . .! عيوني ، صغيّرتي بدور! خو مو جوعانة؟
- . .! خو مو حارّةْ عَليجْ . . فدوة رِحتلجْ بنيتي ، ذبّي العبايية . . لا تستاحشي!! هذا بيتج وماكو احد غريب!
- بدور هاجْ شُربي عصير ليمون بارد يطفّي حر الظهريّة .
- . . عيني انتِ ، صغيّرتي إنتِ ، تعاي وياي اراويج دجلة من بالكونة البيت ، واراويجْ المكان اللي تريحين نفْسج بيه من حرالظهريّة ومن هوسة الزعاطيط!
ويمد يده فتعطيه بدور يدها وتحكم أعلى عباءتها حول وجهها بيدها الأخرى ؛ وهي تطرق بغنج وحياء شديدين ، شيئان فيها كانا يحركان فيّ أجمل وأغرب المشاعر .
يعينها على النهوض ويستدير موجهاً حديثه إلى الجالسين :
- مستغربة الطفلة ومستاحشة! . . طفلة بريئة وتستحي من خيالها!! . . اي والله حجية أم حسن ، طفلة وانا مسؤول عنها مثل بنّيتي .
. . يمشيان على مهليهما . . نراه يميل إليها هامساً بشيء لا نسمعه عن بعد ، قبل أن يفتح لها باب الصالة المطلة على نهر دجلة ويختفيان بداخلها .
لم تفتني ابتسامة (الحجية) الخفية الساخرة .
منذ لحظات قدوم (س) الأولى وهو لم ينقطع عن مراقبتي بعين خفية كالصقر ، كلما اقتربتُ من بدور أو مازحتها أو حدثتها ،

أو حتى لو قدمتُ إليها حاجة منزلية كانت قد طلبتها . ويبدو أنه انتبه ومن البداية إلى معالم انبهاري بها ، ومحاولتي في ألا اكون بعيدا عنها كلما أتيحت لي الفرصة .

بدور ، اسم على مسمى . . وجهٌ نضر رائق البشرة ، حنطي اللون ، مكتنز الشفاه ، بعينين عسليتين فيهما خفر وسهوم ، تغطيه هالة من شعر أسود . . قامة أقرب إلى الطول ، متناسقة ، وبامتلائة كافرة الإثارة . . ثديان صغيران ناهضان حان نضوجهما واكتملت استدارتهما ، يلوحان من وراء الثوب الحريري الأخضر حين تسهو فتفلت عباءتها عن أعلى صدرها .

الزوجة لا تخلو من جمال . . بل هي جميلة ومثيرة ، لو أعطت نفسها ما كانت تعطيه من اهتمام ، قبل ان تضع مولوديها الرضيعين العام تلو الآخر . ويبدو أن حظوتها بدأت تأفل ، ولذا فهي لن تغامر في أن تكشف معرفتها بأغراض صبوة الشيخ (س) الجديدة .

- أريد أروحن للسينمه!

نهض من مكانه وهو يدمدم بخفوت -لاعناً في الغالب-وملقياً نظرات ساخطة تجاهي ، وتوجه إليها ، وهمس بشيء قرب اذنها فتبعته إلى ساحة البيت .

- . . ، . . ، . .

- لا ما أريدن! أريد اروحن للسينمه!!

- . . ، . . ، . .

- لعْ! شو إلا اليوم! . . اريد أروح اليوم!! نسمعها تجيبه بوضوح وإصرار .

عاد إلى مكانه وعلائم السخط بادية بوضوح على وجهه ، وعادت هي مطرقة بصمت إلى مكانها ، متحاشية النظر إلى من هم في الغرفة ، وأخذت تتشاغل بلملمة عباءتها حول ساقيها الممدودتين ، على حين التهبت الوجنتان بشفق وردي كشف حدة الانفعال العميق الذي تحاول إخفاءه .

كان الجميع يتصنع الانشغال عما يدور بينهما ، ولغة الألسن بين الأهل كانت تختلف عن لغة عيونهم المتغامزة وابتساماتهم المتخفية ، والإشارات التلغرافية المتبادلة بالأيدي .

نظر(س) إليها فترة بإمعان وتأمُّل غلب أثناءها السكون على الجميع . . تأوه مستسلماً :

- ما اخليج ترحين ويّ حسن للسينما . . إنتبه َالى عبارته تلك . . هيٌ مو مسألة ثقة ، حسن مخّه يسرح هواية ، شنو رايج ترحين للسينمه ويه سالم ، ثم متوجهاً برجاءه إلى سالم :

- تاخذها وليدي سالم للسينما ، ارجوك تصنع جميل وياي ، ثم نظر إلى سالم برجاء يشبه الاستعطاف . واستطرد : «سالم نفس عمر حسن لكن عيونه ما تزوغ مثل أخونا! . . يا الله قوموا قبل ما يتاخر الليل» .

نهض سالم إلى ساحة الدار ، في حين هبّت بدور بنشاط وفرح لتصعد إلى الغرف العلوية .

وتعود بملبس يظهر أنوثتها اليانعة بشكل أكبر كلما انفتح شباك

عباءتها ، مع مكياج وجه خفيف . . حين مرّت من جواري ، داعبني عطر رقيق والتفتت بنظرتها صوبي ، وكان فيها نوع من التسليم والاعتذار .

أوشكتْ عبرة خانقة أن تفلت من حلقي ، غير أني نجحتُ وبجهد خارق في إمساكها .

سَبقتْ بدور سالم بخطوتين تجاه الباب ، منتظرةً .

ناداني صديقي سالم!

. . أثناء توجهي لإيصالهما إلى الباب الخارجي ، همس في أذني «تعال بعد نصف ساعة إلى دارنا . . لا بأس من المحاولة يا أخي!» .

لم استوعب مقصده من دعوتي للتوجه إلى دارهم الخالية ، والتي غادرها أهله في سفرة قصيرة ليومين إلى بعقوبة ، تاركينه كي يعدّ لامتحان الإكمال في موضوع لم ينجح فيه من الدور الأول . . «هما ذاهبان إلى السينما ، فما الذي أعمله في داره الفارغة ؟»

« . . إنه بطران ، لا يدرك مدى ألمي!»

. . كانت قد مرت قرابة الساعة حين بدأتْ خيوط شكٍ باهتة تراود ذهني .

لم تكن دارهم بعيدة ، ولكن يبدو أني قطعتها في حالة من الذهول والضياع في تخمينات متضاربة .

هنالك ضوء خافت يُرى . . دفعتُ باب سياج الحديقة الحديدي فانفتح . . ألفيتُ باب البيت الرئيسي مواراباً ، أغلقته

ورائي . بدأتْ دقات قلبي تتسارع وأنا أعبر صالة الاستقبال . . بدأتُ أحس بخفقان قلبي يطرق جدران صدري بعنف عندما تناهت إليّ اصوات خافتة من غرفة النوم . . اقتربت أكثر .

. . أنا الآن أقف منصتاً وراء بابها .

- . . دير بالك حبيبي ، أنا بعدني ما مأخوذة . . لا لا يواش يواش يواش عيوني . . ما يخالف ، ما يخالف لاتستعجل إنزعهْ إنتَ . . بس يواش يواش . . كيفك . . تريد تاخذني من . . . . ، لو تجيني من قدام . . بس تره بواز ، بواز ما وصّيك ، بواز بواز .

اختفى الهمس ، لم يبق إلا صوت السرير المهتز لفترة ، ثم بدأت ترتفع همسات وحشرجات وأنين متناغم يتعالى . . ثم كلمات متقطّعة تتصاعد وتتسارع وتزداد علوّاً ، وكان صوتها هو الأكثر وضوحاً .

- . . اي اي حبيبي إي إي عيوني . . آه آه عيوني . . آه آه آه . . أُوف بعد . . أُوف بعد . . بعد . . بعد . . إي عيوني إي إي ، إي ولك بعد . .

. . ها ها راح توصل . . ، اي اي راح توصل . . ، ها ها وصلتْ! . . اوف وصلتْ! . . إي إي إجَـــــتّي! . . ، اوف إجَتّي! . . ، إجتّي! ، إجَتيييييي . . ويلييبي آآآآخ . .

كانت آهة حرّاقة أشبه بصرخة ألم بعيدة الغور ، منزوعة من أعمق أعماق الروح .

هدوء مطبق للحظات أعقبه نحيب خافت هادىء . .

خرجتُ إلى الحديقة أُبرّد الحريق الذي أشعل جسدي وروحي ، ولأخفف من خفقان قلبي الذي أوشك بضرباته أن يخنق أنفاسي .

جلستُ على أول عتبة ، وقابلتني نسمة حولت العرق الذي بلل جسدي إلى برد منعش .

. . أحقاً ان هذه الصبية التي تذوب حياءً وخفراً والتي تبدو غرّة بسيطة ، هي نفسها من كان وراء الباب يتحدث بخبرة النساء في الجنس ، وعن أوضاعه في السرير ، أهي نفسها ، التي تستحي من رفع بصرها ، تستجيب بهذا العنف إلى أسرار اللذة التي أجهل انا الكثير منها ، حتى نظرياً ، . . بدور . . لا أصدق أن تلك ، هي بدور نفسها . . ، بدور التي أرقتني براءتها قبل جمالها في الليلتين الماضيتين بكل خيالات الحب العذري المراهق!

طفح ضوء صالة الاستقبال وانساب إلى مكاني من عتبة الحديقة .

تريثت قليلا وأخذت بضعة أنفاس بعمق شديد ، قبل أن أنهض وأتوجه إلى باب صالة الاستقبال وأنقر عليه بخفة .

فتح لي سالم الباب مبتسماً .

- تأخرت . كنا في انتظارك . استرح واجلس هنا! ، سأجلب لك قدحاً من الليمون ، ثم توجه إلى المطبخ .

لم يبدُ على بدور أي دهشة أو أيّ انفعال لظهوري ودخولي وجلوسي معهما . كانت تلقي بظهرها بهدوء واسترخاء على

الكنبة العريضة . . وجهها رائق ، لم يذب عنه بعد تورد الإحماء والإثارة . . شعرها الأسود المسترسل والمندّى بالعرق ، ما زال يحمل آثار أمواج العاصفة التي مرت عليه ، ينهمر على الكتفين ، وتلتصق خصلٌ ندية منه فوق الجبين . . العينان المفتوحتان على وسعيهما تحملقان في نقطة ثابتة ، وكأنهما تخترقان الجُدر إلى عالمٍ بعيد جميلٍ مجهول يبرق بجذل غامض ، وينعكس على بريق العينين ، وعلى الابتسامة الغامضة من الشفتين المنفرجتين .

. . لم تكن حاضرةً في هذه الغرفة أمامي ، ولا حتى في هذا الكون الذي ننتمي إليه ، كانت قد نسيتْ ، تماما ، قدح الليمون الذي قدّم إليها ، تمسك به بيدها المسترخية على حاشية الكنبة دون حراك ، كانت كلها جامدة في موقع واحد لا يتغير ، وكأنها حسناء منزوعة من قماش لوحة ، لتثبّت ضمن إطار هذه الغرفة .

. . لم يكن لي وجود في عالمها ذاك . . نهضتُ وغادرتُ .

لم تمض على عودتي إلى دارنا غير ساعة ونصف الساعة ، حين عاد سالم وبدور ، داخلين إلى غرفة الجلوس ، ملقين التحية على العائلة الموجودة بكاملها . . هي ملتفة بعباءتها لا يبرز من سوادها إلا الوجه الحنطي الصبوح بابتسامته الخافرة المعهودة ، وبالعينين نصف المسبلتين حياءً . اما سالم فقد دخل بشكل فيه وقار وتحفظ ، موجها أبصاره تجاه (س) بملامح فخر وثقة ، تعبران أن المهمة التي كلفه بها (س) ، قد أنجزت على أحسن وجه . .

ما كان من (س) إلا أن نهض فرحاً ومرحبا بسالم ثم مقبلاً إياه بحرارة :

- ما راح أنسالك هذا الفضل . . الطفلة كانت ضايجة ومخنوقة . .

ثم ملتفتاً إلى بدور .

- بدور شلون جان الفلم ؟

- حلو . . أجابت بدور بصوت خافت ؛ وهي تطرق برأسها إلى الأرض وتسدل عباءتها على جبهتها .

- شنو هوّ الفلم ؟ سأل (س) مبتسماً .

- فلم هندي ، سارع سالم إلى الإجابة .

- شنو جان موضوع الفلم ؟

نظر سالم إليّ مبتسماً ، ثم أجاب :

- ليش أحد يفتهم شي منه ؟! ، هوسه وثبيرة مثل أي فلم هندي .

يا رمز المعالي

أفلت حامد من الباب المشرع إلى الزقاق بملابسه الداخلية وبغترته البيضاء وعقاله الأسود . . رفع عقاله وكوفيته بيده اليمنى وأخذ يقفز ، دائراً نصف دورة ، تارةً إلى اليمين وأخرى إلى الشمال ، وهو يدبك هازجاً :

«مأمونة دار السيد!»

«محروسة دار السيد»

«دار السيد منهوبة»

«دار السيد مسلوبة»

ها ها ها ، اخوتي

«دار السيد منكوبة»

«ودار السيد!!»

كرر المقاطع دابكاً هازجاً وهو يهزّ عقاله وغترته عالياً فوق رأسه ، حتى اختفى عند زاوية الزقاق .

. . ما هي إلا لحظات وستخرج هُدى فارعة الرأس ، هارعة إلى نهاية الزقاق ، تصرخ بلوعة «حامد وينك يا خيي يا حامد . . كَطيعة تكَطعني . . يا أهل الرحم ما أحد شاف ها المسكين ؟» .

. . تخـرج هدى فـارعـة الرأس جـاحظة العـينين صـارخـة «وينك . . . . .»

يرقب ويسـمع متـراخيـا مـا يدور في الزقاق من على كـرسـيـه وحوله دثاره .

. . قادته متكئا على ذراعها ، وأجلسته برفق قرب افريز السطح ليتشمّس . يكاد يتكرر مشهد الامس نفسه . . لا يجد انفعالا مميزا نحوه . .

ساقاه متراخيتان ، لا إحساس بوجود حوضه الذي يتكوم فوق غطاء كرسيه . . نصف جذعه العلوي عجيزة نخل متعفنة خاوية . . طعم صدىء يملء فمه . . لسانه قطعة خشب ثقيلة متيبسة . . عيناه ثقيلتان جافتان تنظران بكلل إلى مساحة رؤية أمامية محدودة . . طبقة شمعية تغلف جلده . . كثيفة طبقة الشمع تلك فوق وجهه وجبينه . . شعره قطعة غريّن ثقيل متيبس . .

. . يتدحرج مكعب من الصور المقطّعة . .

. . مكعبات ومخاريط ولفائف أسطوانية ملونة تعوم في صندوق عظمي أجوف مملوء برنين هلامي . . أصداء معدنية رتيبة مكررة .

. . شريط مقطّع لصور متراكبة تتبدل أجزاء تراكيبها فتصنع مقاطع جديدة ، يلتصق هذا المقطع بمقطع سابق أو بمقاطع لاحقة ، يومض بعضها برقا ويختفي ، مخلفاً خطوط شحنات تفريغ مشرشبة على خلفيات صور زرقاء ورمادية وحمراء

وفضاءات لا لون أو حدود لها .

. . مكعبات ملونة لأحداث وحكايا وأقوال مرصوفة ، تتراكب بهيئات هرمية تتعالى وتنفرط متدحرجة .

. . لا يستطيع متابعتها . . لا رغبة بلمّ أجزائها من جديد . يختفي الهرم . . تترامى على السطح الأجوف بعض من مكعباته بأشرطتها المصوّرة .

. . أصداء سقوطها يحدث ضجيجا مكتوما . .

يزداد إعياؤه . . يتدارك فوضاه . . يهرب منها بالتحديق المركّز بمساحة الرؤية الأمامية المحدودة . .

مثلثات وحلزونيات وأشرطة مشرشبه ، وخطوط متقطعة قواعدها عند حافات السطوح . . رسمةٌ بحبر أسود مخفف على صفحة واجهات البيوت . . فوهات فارغة في الجدران المحبّرة . . شبابيك عوراء ببقايا ثلم زجاج محطم . . أبواب مخلّعة متشققة أعيدت فسدّت بعض مداخلها .

يتدحرج مكعب آخر منفرشا أمام شاشة الوعي :

وجوه مسوّدة تدبُّ كسولة ضجرة في شوارع شبه مقفرة ، لها رنين صمت حزين يتجاوب صداه بين أعين المارة أو أولئك الواقفين بملل وكآبة قرب الأبواب أو وراء الشبابيك المحطمة تزوغ أبصارهم في العدم .

- يوم تسوّد وجوه . . «الله لا ينطيك بحق هاي الغيمة السودة . . شوفي ام فاروق شوفي شلون اظلمّت الدنيا . . هاي غيمة لو غضب اسود» .

- «والله أم احمد من يوم غيمة الجراد الصفرة والغيمة الحمرة اللي خنكَتنا بالرمل الأحمر من خمسين سنة ما شفنا مثل ها الشي . يومها أذّنت كل المآذن ، وبدت قراءة التسابيح والأدعية ليوم القيامة . . وامي المقعدة تصرخ من غرفتها «هذي علائم ظهور صاحب الزمان . . بعد عيني صاحب الزمان» .

- «والله وما يصدقه العقل . . مطر أسود . . مطر اسود لطخ كل البيوت . . صخام يُمه! ، هذا مو مطر . . شوفي!! شوفي! تلطّخ صبغ بيتنا الجديد . . وبيتكم وبيت أم هاشم . .»

- «هذي عمايل مضروب الكلوة أبو «ام المعارك» ، حرائق نفط الكويت وصل دخّانها لبيوتنا . . هذي صارت «أم المصاخم » . . «أم الملاطم» .

- «بالله ستري علينا أم فاروق يروح يسمعنا احد!»

- «الكل تشتم علني وبكل مكان . . شنو اللي بقى ينخاف عليه . . أحمد وأخذته «القادسية . . بوابة القائد الشرجية» ، ومحمود لليوم لا حس ولا خبر من بداية الانسحاب المظفر . وشوفي هذا جارك أستاذ حامد أخو المسكينة هدى ، مدرس محترم تجنن من يوم هزيمة البطل المنصور . . وهاي هالتشوفين طبكَت عند حامد ، خبال تمام . . يمه ما تحمل الكل يموتون . . يحتركَون وتاكلهم الجلاب وهذا باقي . .» .

يختنق برغبة عارمة بالبكاء . . لايطاوعه كيانه المخذول الواهن ولا مآقيه المتيبسة . . أهي الكآبة التي تخذله أم هي برشامات الكآبة التي يحضرها جاره طبيب النفسية .

. . ينحني عليه بوجه فأر كبير ذي شارب هتلري . . تنطّ حدقتاه الوسيعتان عبر زجاج عويناته الثخينة ؛ فتسقط متدحرجة على وجهه ، لا سبيل لإزاحتهما عنه بكفه .

. . يزيح بصره يسارا . . تسقط الحدقتان وقد تدحرجتا يمينا .

– ستفيدك هذه البرشامات . . سيزول هذا الكسل والخمول واللاأبالية بعد حين .

. . يغافله بين الكلمات ويلقي ابتسامات مبهمة ، وتتدحرج حدقتاه إلى الأخت الشابة .

يخرج الفأر الهتلري ويسحب حدقتيه معه .

– ساعديني على النهوض رجاءً . . إلى الحمام!

–لم ألقيت البرشامات في المرحاض ؟

– لا أريد أن أصبح مدمن أفيون . . لا أثق بهذا الجار الفأر .

يواصل التحديق في حقل رؤيته ، الواجهات وبوابة بيت هدى وحامد أمامه . . تسري قشعريرة برد فيحكم إزاره حوله بكلل . . تعبر فوق السطح بقع ضوء من شمس مسافرة عبر غيوم بيضاء . . يتابع انتقالها إلى سطح بيت هدى ثم تسلقها جدار بيت الراوي .

يجهد . . يلملم كل بقايا حطام إرادته ، يحاول البكاء . . يعز البكاء .

. . لا بكاء! ، أصرخ إذاً ! اصرخ بأعلى صوتك!!

يصرخ في العراء . .

. . تخرج الصرخة فحيحا رتيبا ثقيلا ، لا تتعدى الفم المتراخي

المفتوح فتنزلق .

. . تسقط الصرخةُ في بئرٍ ، دوّامة الصمت متاهاتٌ . . لا رنةَ للصوتِ ، عبثا يبحث عبر البصرِ المخذولِ عن ذاته على أرضية السطحِ .

. . يشد قواه ، يعيد البصر في رسومات السخام المذاب على واجهات البيوت المتصدعة أمامه .

يستعيد مكعباته ومخاريطه الملونة . . يحاول أن يركب منها هرما .

. . تنفرط المكعبات وتتدحرج . .

شاحنات عتيقة متربة تحمل أسمالا ممزقة لملابس داخلية قذرة ، وضعت فوق هياكل بشرية متراصة ، ضامرة ، معفرّة ، تائهة الابصار .

. . تقف الشاحنة . . تتساقط الأشباح المهلهلة نصف العارية فوق أرضية الشارع الأنيق .

. . ينفرط الحشد فرادى ومثانيَ ومجاميع صغيرة تطرق الأبواب وتصرخ . . ميّا ، كسرة خبز! ، سِترا! سِترا! يا اهل الرَحَمْ الله يستركم!! . . هِدمة زايدة! ، نَعل عتيق!! . . سِتر سِترا!! الله يستركم أهل البيت .

يتكرر المشهد بعد ساعات ، وفي اليوم الذي يليه .

. . في الأيام التالية ، تقل أعداد فلول الجيش الغازي المنكسر ، فلول المهانة ، تقل الشاحنات وأسراب المتسولين العرايا .

. . يفلت حامد من سجنه من جديد بسرواله الداخلي . .

يمشي بجدية وحزن في الزقاق . . يلطم صدره العاري بكفيه ثم ينزل ضربات قوية بقبضة يده فوق رأسه :

«طوطو حيدرا . . طوطو حيدرا! . . طو طو طو طووو ، حيدرا!» . . يختفي من الزقاق .

تخرج هدى حافية القدمين « . . وينك يا مسكين . . يا . . .» . يزيح تراكيب مكعباته وأسطوانات صوره الهرمية فتنفرط مبتعدة . . لا يجد أثرا لها فوق أرضية السطح .

«وانتَ لـ سبيت أهلِ البلدْ» .

. . «عجبْ انتَ لـ ما تِنسبي» .

يحاول مرات ومرات . . يخرج الصوت أخيرا كشخير حزين مكتوم .

ينشط بصره فتتسع مساحة الرؤية ، ينجح بلف رأسه إلى حدود بيت الشيخ (مسعد) على يساره ، وإلى حدود سطح (العبيدي) عن يمينه . . يستند إلى الإفريز الحديدي ويجهد في رفع جسده عن كرسيه . . يسقط المئزر عن أحضانه . . ينجح في الاتكاء على السياج . . تلوح معالم ابتسامة باهتة على شفتيه . . يحاول ويفلح في أخذ نفس طويل عميق تعقبه حسرة طويلة تختنق بنشيج متقطع يستطيع هو سماعه . . تندى عيناه ، تترطب ، تزداد ابتسامته سعة . .

***

يعود محمود . .

«ابتعدنا في الليل عن مسار الفلول المتراجعة عبر الطريق الرئيسي . . أفراداً هائمين ، جائعين مقرورين .

. . كانت الأرزاق قد قطعت تماما ليومين قبل الاكتساح . . لم يكن الجو رحيما . . برد ومطر .

ضباطنا وآمرينا استولوا على الشاحنات والعربات الموجودة في الميدان . . كان العراك فيما بينهم شرسا على العجلات الاسرع .

في المدينة التي مرت بها القوات المبعثرة لم تبق وسيلة نقل لم تختطف حتى الدراجات الهوائية والتراكترات . . . . الكل «وينك يا روحي!» .

كنت على يقين بأن الطائرات ستلاحق الفلول على الطريق العام .

كان الرتل الفار على مسافة بضعة كيلومترات عنا حين حلت الكارثة .

. . أرتال متعاقبة من الطائرات . . النيران والحمم التي تصاعدت كانت تذكرني بغيمات فطر التفجيرات النووية ،

لكنها كانت على حجم أصغر ، وبسلسلة متواصلة من مؤخرة الركب وحتى نهاية مقدمته البعيدة .

. . كنا منبطحَين على وجهينا ، حين أبرقت ثم أرعدت وتلا ذلك عصف شديد زلزل الأرض من تحتنا ، وغمرنا بكثيب من الرمال .

. . حين استطعنا النهوض كان القصف متواصلا على مسافات أبعد من مسار الطريق العام المفترض . . ساعتان لا غير ، خيم بعدهما صمت يقشعر له البدن . . قبل ذلك ، كنا نسمع دبيب الحياة في ما يصل إلينا من وشوشات العجلات الفارة .

. . لا نأمة تسمع الآن ، حتى صفير الريح تجمّد .

فضول رائحة الموت الخفية تجعلك تهتز هلعا وشوقا لاستكشاف المجهول المستعصي . . في المقابر رغم هلعك تبحث عن حفرة مظلمة تقف عند حافتها ، تمدّ فيها بصرك إلى أعمق أعماقها . . إلى ما تحتها! .

اقتربنا حذرين . . هبّت علينا رائحة شواء نفاذة بعبق الموت . . تقيأ صاحبي . أكان ذلك خوفا أم قرفا ؟!

كتل بشرية متفحمة سوداء تمتد على طول الطريق الممتد إلى أبعد نقطة في البصر ، أكثر هياكل الشواء كانت منكمشة متقلّصة ، ما كان منها في مركبات مغطاة ، اختلطت بقايا اللحم والعظام المسودّة منها بالحديد المنصهر .

لاشك بأنه أطول سيخ للشواء في تأريخ البشرية!!

. . كانت هنالك أجزاء كثيرة منفصلة محترقة متناثرة على

جانبي الطريق . . اذرع وانصاف رؤوس ، وأقدام بأحذيتها أطارها عصف الانفجار مسافات . .

استمر قيء صاحبي وقد تهالك على ركبتيه . . غطى وجهه لمدة طويلة قبل أن أمد يديّ لأنهضه ، مشيرا بصمت إلى ضرورة مواصلة السير .

كيلومترات طويلة وعديدة ، والصورة تكاد تكون هي الصورة ذاتها .

. . رغم محاولتنا ان يكون مسارنا بعيدا عن سيخ الشواء الطويل الممتد عبر الصحراء ، كنا نقوم حذرين باقترابات جديدة نستقصي فيها عن قرب نهاية مشهد الجحيم هذا .

. . لا قرار ولا نهاية للجحيم! .

. . خفّت الرائحة قليلا ، لكنها وقبل ذلك ، كانت قد استقطبت مئات الكلاب الضالة ، وربما تقاطر البعض منها من مدينتي الكويت والعبدلي للمشاركة في وليمة القائد الحاتمية الكبرى .

أشرت على صاحبي بالابتعاد عن الطريق الرئيسي ، والإسراع على أمل الوصول إلى مشارف مركز حضري قبل حلول الظلام ، وقبل أن تشارك قطعان الذئاب لأخذ حصتها من الهبة العليّة . أضف إلى أن بعضاً من الكلاب المستثارة بالروائح قد تفضل لحما طرياً بدلا عن آخر متيبّس محترق .

في(العبدلي) استطعنا المقايضة بكنزاتنا الصوفية مقابل بعض الأرغفة .

. . في مشارف الزبير وبعد مسيرة نهار كامل ، كانت المقايضة بغطائين صوفيين للرأس ، وفي أطراف البصرة بقمصلتينا .

. . استمرت عملية التعري (الستربتيز) حتى وصولنا إلى أطراف (الكوت) ، وبعد عشرة أيام من الإذلال والبرد والجوع والاقدام المتقرحة المتورمة . . لم يبق خلالها خرنوب ولا أشواك طرية لم تعلف ، وحين لا يكون هنالك شيء يمكن أن يغذّي أو يطرّي فمنا ، كنا نضع في أفواهنا حصى نمصّها ونقلب فيها في أفواهنا .

على مشارف المدينة كانت هنالك شاحنات في الانتظار ، ولك أن تتصور فيض سعادتنا حين لمحناها عن بعد ، لقد اغرورقت عيناي على حين أجهش صاحبي بالبكاء .

– سننتظر آخرين قادمين حتى تمتلىء الشاحنة ، سنوصلكما مع هذه المجموعة من رفاقكم إلى أحد أحياء بغداد الغنية ، هناك الخير كثير ، ومن يسكن في مدينة اخرى سيجد من هناك منفذا ووسيلة . . «الله ما يكطع بعبده» . . لكن أجور التعب والطريق مطلوبة «مو هيج ؟؟ انتم زين تَعَرفون شحة البنزين والمواد الاحتياطية وكل لوازم الشاحنة . . انتو زين تقدرون إحنه هم ورانا بيوت وعيال فاتحه حلْوكه» . . أشار بعينيه ، وبحركة رأس خفيفة إلى ما تبقى فوق جسدينا!

– والريح والبرد في هذا الشتاء الزمهرير؟ تساءل رفيقي .

– «انتو شباب ، ما شا الله زلم خشنة! ، راح تتراصفون باللوري وواحد يدفي اللاخ» .

وخلعنا عنا آخر ما يمكن خلعه ، بنطالينا وأحذيتنا .
« . . كانت هنالك شاحنة كبيرة قريبة يُجمع فيها كل ما يمكن جمعه من الأسلاب .»
تدحرجت أسطوانة مصوّرة بتقطيع بطيء ، أمامي الآن سكان شواطيء المانش الإنكليز هم وقواربهم في عتمة الليل ، آلاف تعبر لجة البحر الصاخب إلى (دنكرك) . . حتى قوارب الصيد الصغيرة سارعت لنجدة أرتال القوات المحاصرة .
أتابع حامد وهو يفرّ مرة أخرى من محبسه ، ولكنه في هذه المرة كان في كامل قيافته ، بذلة عاتمة زرقاء ، حذاء من الروغان اللماع ، غترة حريرية بيضاء وعقال أنيق أسود .
. . مشى مختالا بعد أن عدّل حواشي غترته ورفع رأسه بشموخ ، وعلا صوته :
«أمجاد يا عرب أمجاد . . في المحنة كرام أسياد . . أمجاد يا عرب أمجاد!!» .
. . استمر في إنشاده إلى أن اختفى عند زاوية الزقاق .
. . علا صوت هدى مستنجدا مناشدا :
«وينك يا مسكين . . وينك . . .؟!» .
الجو غائم ، لكنه في نفس مكانه من السطح ، يجلس فوق الكرسي ذاته ، غير أن الدثار الذي يلتفّ به كان أكثر سمكا .
عيناه ما زالتا مشدودتين إلى الأشكال التي رسمها سخام المطر الأسود على واجهات البيوت أمامه ، لم تتبدل حدة حواشيها ولا هيئاتها حتى بعد أن غسلها مطر الله المألوف . . لا بد أن ما

حملته تلك المطرة المشؤومة كان حبرا صينيا مخففاً .
باب بيت هدى أمامه لم ينفتح ليومين ، ولم يظهر حامد في عروضه الغريبة في الزقاق . . لم يستطع الإفلات ، يبدو أن الأقفال قد أحكمت عليه أكثر من السابق .
تتضبب رسومات الواجهات المحبرّة أمام عينيه ثم تتلاشى .
. . تطفو أهرامات مكعباته وهيئاته الأسطوانية وتنفرط ، فارشة أمام شاشة وعي الذاكرة مقاطع أشرطة مصورة تختلف درجات وضوحها . .

***

ارتجّ البيت في زلزال عاصف صاخب ، وتناثر زجاج النوافذ . . وجد نفسه وزوجته مرميين عن سريرهما فوق أرضية الغرفة . . تلمس أحدهما الآخر في حلك الظلمة .

- أأنتَ بخير ؟

- أأنت بخير ؟

أمسكَ أحدهما كف الآخر وبدأ البحث الصعب في حالة الانشداه تلك عن الباب .

. . دون أية كلمة توجها إلى الغرفة الصغيرة المنزوية المجاورة . . جلسا في الظلمة على التخت المجاور لبابها بصمت ، حتى استردا نفسيهما .

- لقد قصفوا برج المرسلات والاتصالات على الأرجح .

وكان الأمر كذلك .

- ألم أقل لك إنهم سيضربون! قالت بصوت مرتجف واهن .

- لم أكن أتصور أنهم جادون في القضاء على أكبر حليف لهم في الشرق الأوسط .

لم يكن برج المرسلات ذاك ، يبعد عن المنزل بأكثر من مئة وخمسين مترا . وليته البقعة المهمة الوحيدة .

. . بضعة عشرات من الأمتار عنه ، (يشمخ) مجمّع المخابرات الضخم ، وعلى مبعدة أقل من مئة متر يمين الدار ، معسكر تدريب جنود المخابرات والاستخبارات ، ودائرة الانضباط العسكري .

خلف الدار بمئتي متر مجمع بيوت الوزراء وساحة الإعدامات (بالطبع تحت اسم ساحة التدريبات الخاصة) ، حيث كثيرا ما كانت تصل إليهما منه لعلعات الرصاص قبل اذان الفجر .

وهكذا لم يكن قصف المرسلات الصاروخي هو الزلزال الوحيد الصاخب تلك الليلة .

عند الصباح ، وبينما كان يحاول أن يسد بعض ثغرات النوافذ بصفائح كارتونية ، ويعيد ظلفة الباب الرئيسية المخلوعة إلى موضعها ، بدت مظاهر حركة هجرة جماعية من البيوتات المجاورة

. . تقدم أحد الجيران منه متسائلا في حيرة «لا أراك في عجلة لمغادرة المكان ؟» .

ذهبوا إلى مدن أهاليهم أو اقاربهم ، هذا إلى(راوه) ، وذاك إلى(الفلوجة) ، و(عانه) و(النجف) و(الخالص) . .

. . حضر أولاده وأمهم من البيت الآخر ، ونزلت ابنته من سيارتها ترتجف رعبا كعادتها في مثل هذه المواقف .

– اسرعْ ، هيا اسرعْ معنا إلى بستان أصدقاء لنا في ديالى . . اسرعْ! اسرعْ ! . . العفو اسرعا ، اسرعا وتعالا معنا رجاءً . . الكل مغادر من حولك!

- لكني لا أنوي المغادرة . . لم أعتد على ترك المكان الذي أعيش فيه .

أجابها بهدوء وبابتسامة مطمئنة ، وواصل حديثه محتضنا اياها برفق :

- نسيت أني لم أغادر مسكني في البصرة ولا مرة واحدة لست سنوات من الحرب ، كانت الدار حينها في قلب مواقع القصف . . كنت أنقلكم إلى مكان آخر آمن وأعود إلى ديرة كانت قد أقفرت تماما . . الافضل خذي سيارتي هذه فهي آمن وأوسع . . وسيارتان عندكم في مثل هذا الظرف خير من واحدة . . ستبقى عندنا الأخرى الأصغر وفيها كفايتنا .

لم يمنع تحصين الغرفة المنزوية الصغيرة من أن تُزخرف أعالي جدرانها بالشظايا ، وأصبح الوصول إلى المرافق الأخرى في البيت خطرا ، خصوصا في ساعات الليل ، غير أنهما كانا محظوظين ، فركن المؤونة والحمام لصيقين تماما بالغرفة الصغيرة ، وأصبحت مدفأة علاء الدين داخلها هي المخبز والفرن والطباخ ومصدر الإنارة ، علاوة على التدفئة في ذلك الشتاء قارس البرودة .

كان يوصل زوجته إلى مكان عملها عبر شوارع شبه مقفرة ، وهي ترتجف هلعا طوال الطريق من أصوات القصف المتفرقة . . بعد انتهاء عمله يعود لأخذها ، صامتة مفزوعة طوال الطريق . .

أسبوع . . اثنان من القصف والرعب ، وتمرض . . إسهالات

وقيء . . أنزفة رحمية متكررة . . أقسام الطوارىء في المستشفيات على أشدها زحاما وأسوأها خدمة . . يصاب بالفزع خوف فقدانها . . «أما من فرج . . أما من خلاص ؟! متى تزاح الغمة ؟! متى ينتهي وتنتهي معه حروبه اللعينة . . يارب ليتني أكون مخطئا ، وأنهم جادون فعلا في الخلاص منه . . يارب!»

تستمر الحمم والصخب الهادر ، والوميض الفضي اللامع ، واحتراق السماء باللهب الأحمر الذي يليه .

الشظايا التي كان يلمها عند الصباح كل يوم من الغرف والسطح ، والتي كان يضعها في وعاء خزفي ، زاد وزنها عن ثلاثة كيلوغرامات . . يتشاءم من جمعها . . يدفنها تحت شجرة زيتون في حديقة المنزل .

أصبحت الحديقة المكان الآمن ، غير الموحش الوحيد لكل كلاب المنطقة . . كانو ونيسهما ، شاركوهما في الزاد العسير وبترحاب ، فقد أقفر الحي من سكانه .

كثرت الضحايا . . وعادت قطع القماش السوداء معلقة هنا وهناك . . عادت قوافل جنازات القادسية الثالثة إلى الظهور .

. . النعوش المارة إلى مقبرتي الفلوجة والنجف تعبر مسرعة أمام داره .

يضع يده في يدها حتى تستطيع بعد جهد أن تغفو على التخت الضيق في السويعات القليلة حين يبتعد القصف ، يمد جسده على فراش مجاور على الأرض ، وينصت من مذياعه الصغير إلى إذاعات العالم(مونت كارلو) ، الـ(ب ب سي) ،

القاهرة ، عمان . . الكل يناشد القائد الصامد القبول بأحد عروض عديدة لانسحاب مشرف ، ودون شروط مجحفة . . «يا رب!!» ، آلاف في مثل حاله أو أسوأ منه ، ملايين دعوا وبحرارة من الأعماق أن يستجيب . . . صامد ، صامد عنود بطل . . وليس كل العناد حمق! ، فالضحايا ليسوا إلا قرابينه! .

الإنذار الأخير! . . ستعبر قوات العالم المدجج بكل بدع الموت الجماعي . . ستعبر عند منتصف هذه الليلة على حشوده من الجياع المقهورين والمرتجفين بردا وهلعا . . حشود مسكينة لا خيار لها في أشكال الموت التي يُزج بها دون قضية أو هدف مقنع . . لا ، بل وكل ما هو شائن وعدواني . . لا خيار لهم في الحياة . . لا خيار في الموت .

في ساعة الهجوم . . جاء أمر الانسحاب من (محافظة) الكويت .

ينصت إلى الخبر : « . . بتدخل عاجل من الأمم المتحدة ، وبعد الموافقة على الانسحاب الفوري الكامل من أراضي الكويت . . سيتم وقف القصف على مدينة بغداد في الساعة الثالثة والنصف بتوقيتها المحلي . . .» .

– أسمعتِ ، أسمعتِ يا حبيبتي إنها نهاية المحنة والطاغية . . سنستمع معا غدا صباحا إلى البيان الأول لحكم جديد يعلن نهاية الحروب والمذابح والقهر . . غدا مهرجانات الناس في كل زاوية من البلد الجريح . . احتفالات حتى في تكريت والرمادي . .

بدأت الحمم تنهمر على محيط سكناه . . ليلة ولا كل تلك الليالي المزلزلة . . كأنهما هما فقط مركز تلك المعركة . .

. . ارتجاج ضخم ، مادَ البيت من تحته في اتجاه وعاد إلى مكانه ، مع استمرار اهتزاز خفيف أعقبه . . أحس بأن لم تبق أية باب إلا وانخلعت ، وتطايرت آخر الشظايا الزجاجية العالقة في زوايا النوافذ . . «لابد وأنه انهيار الجسر المعلق غير البعيد!!» .

كثرت الشظايا التي كان يُسمع أزيزها وارتطامها بعد وميض الانفجارات وهزيمها ، مخترقة طبقات الألواح الخشبية التي تدعم النوافذ العارية . . ألواح لا تتعدى وظيفتها الإحساس المخادع ببعض الطمأنينة . .

يسمع اصطكاك أسنانها ، ويزداد اختضاض كفها المتمسكة به . . يسمع صرير خوف خشب التخت المرتعش تحتها . . يرمي بجسده فوقها ويحتضنها بعطف بالغ . . يقل اصكاك أسنانها ويخف اختضاضها . . تغفو أخيراً ، أو هذا ما خيل إليه .

يتوقف القصف في الثالثة والنصف فجرا . . صمت له رنين . . لقد توقف القصف يا حبيبتي!!

. . دعها في نومها . . ساعات قليلة وأوقظها على نشوة البيان الأول لعهد حكم جديد ، حكم لا يمكن إلا أن يبث الأمل في ملايين المذلّين المهانين . . سيبزغ فجر أمل جديد .

يغفو ساعتين . . الساعة تقترب من السابعة . . يدير مفاتيح المذياع . . يجد ضالته أخيرا . . الصوت مشوش قليلا ولكنها

إذاعة بغداد .

- إصحي ياحبيبتي . . إصحي ولنستمع سويةً !!

. . لا جواب!

يكرر بصوت أعلى ونغم أرق .

- اصحي لنسمع البشرى!

. . لاجواب!!

يهز الجسد البارد . . يهزه بذهول .

. . يعلو صوت المذياع بنشيد الجوقة :

«إلنَـهَ الـنَصِـرْ والنـَصِـرْ غالي . . صدام يا رمزْ المعالي» .

الضباب والغابة

تحمل تحت ذراعك زرقة البحر الملتمع، الكابي، المعتم، الشفّاف بخضاب البنفسج، المتورّد الخلجان بالحصى. تحمل البحر أقحوانيّ الأفق .. لحظة سارعت لتستوحي منه على وريقاتك لقطةً من مزاجه البحريّ عبرت فيها بألوانك على عجل وانفعال منبهرٍ منتشٍ ..

وجدت نفسك وفرشاتك وألوانك وقد أبدلت مسارك ومسار كلّ أدواتك لتماشي مزاجه المتبدّل في غنج ثانية بثانية. هنا تحت ذراعك، وأنت تسير على غيمةٍ من ذهول حالم، شاشاتٌ مترامية الأبعاد تظهر عليها تفاصيل ذكرياتك برّاقةً متفجّرة الألوان، زاهية حينًا، ضبابيّةً غامضة عسيرة الوضوح حينًا آخر. عدّتك تلك قرّبت الأبعاد الّتي تلاشت .. الهيئات والفضاءات المترامية .. الجدران المصمتة والنخرة المتهاوية .. الواحة والصحراء .. النهر المتدفّق والجدول الرائق .. ضفاف الطين والرمل .. وأرضًا مشت فيها أخاديد الجفاف المعروقة .. هنا سعف النخل المتناثر الهفهاف كشعور السعالي في ليلة عاصفة .. هنا حزنها الأزليّ المستوحش في لفح هاجرة صموت.

◆

ISBN 978-614-419-002-3
9 786144 190029